obeikandl.com

عربة البوعزيزي...

- مركز الحضارة العربية مؤسسة ثقافية مستقلة، تستهدف المشاركة فى استنهاض وتأكيد الانتماء والوعى القومى العربى، فى إطار المشروع الحضارى العربى المستقل.
- يتطلع مركز الحضارة العربية إلى التعاون والتبادل الثقافى والعلمى مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات، والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة.
- يسعى المركز إلى تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب، ونشره وتوزيعه.
- يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه.
- الآراء الواردة فى ما يصدر عن المركز تعبر عن آراء كاتبيها، ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية.

رئيس المركز

على عبد الحميد

مركز الحضارة العربية

4 ش العلمين – عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات – القاهرة

تليفاكس: 33448368 (00202)

www.alhdara-alarabia.com

E.mail: alhdara_alarabia@yahoo.com

alhdara_alarabia@hotmail.com

obeikandi.com

خليل إبراهيم حسونة

عربة البوعزيزي...

رواية

obeikandl.com

الكتـــاب: عربة البوعزيزي... رواية

المؤلف: خليل إبراهيم حسونة

النـــاشر: مركـــز الحضـارة العربيـة

الطبعة الأولى: القاهرة ٢٠١٢

الجمع والصف الإلكتروني: وحدة الحاسوب بالمركز

تصميم وجرافيك: محمد النهبي

011 11 83 503

رقم الإيداع: ٢٠١١/٢١٩٣٠

الترقيم الدولي: 987-977-469-102-1

حسونة، خليل إبراهيم.

عربة البوعزيزي...: رواية/ خليل إبراهيم حسونة.

ط١. - الجيزة: مركز الحضارة العربية للإعلام والنشر والدراسات، ٢٠١١.

١٢٨ ص؛ ٢١ سم.

تدمك: ١ - ١٠٢ - ٤٩٦ - ٩٧٧ - ٩٧٨

١- القصص العربية.

أ- العنوان

٨١٣

obeikandl.com

إهـــــــداء...

إلــى الرجـل الـذي أطلـق جسـده
المحترق البيان رقم واحد ...
الشهيد محمد البوعزيزي

خليل إبراهيم حسونة

obeikandl.com

١

.. ..

.. المنزل الصغير يسبح في الضباب كجوهرة مهاجرة..،

رياح رطبة تعانق وجه الشوارع الترابية في هبات عالية..، نقاط بشرية تلف آلامها، وأحلامها عبر لفافات التبغ الردئ ممزوجة بسعال حاد يرتفع، ويخبو.

تدندن الريح الماطرة مضمخة بوجع الفقراء، معلنة غياب حاضرهم ومستقبلهم..،

أصوات الباعة الجائلين تصفع صمت المكان..،

يصم أذنيه، وهو ينتقل بين جوع ودار..،

في قرية غير أفلاطونية يشاهد في حلمه رغم الفقر وردة، ومأوى، فيه لك أن تغادر مكانك الذي لا يمكنه أن يغادرك.. فيلفُّه النعاس، يدغدغه، وهو يلم هواجسه في أتونه..،

.. وطن تحبه وإن غاب عن ناظريك أحيانا أو أطلق إليك قسوته.. كل شيء فيه مختلف.. الناس والأشياء حتى السكر الشحيح فيه ممزوج بالألم...

.. ..

.. طيف حالم يُجلله الوقار، يلتف بعباءة بيضاء..،

يطلق وجهه فيضان من النور، يناجيه.. يشكو إليه وجع الذات، والزمن الصعب.

يبوء بأهزوجة مدججة بالوحام..، فهو يعرف أن للمال سطوته وهيبته، خاصة إذا كان يشغل بعض الناس، فهو حلال المشاكل، لكن المهم أن يكون شريف المصدر، ويعني ذلك أن هناك العديد من الأسر والكثير من البشر يعتاشون على الفتات في وطن تضربه التناقضات والمصالح، ويعرف ما يضمره المتنفذون له، لكنه ينكر

ذلك أو لعله ينكر، ويصمت، بل ويتغاضى أكثر..!

.. ..

يترك فتائل النور التي تتركه..،

يتدحرج على الخدين دمع يابس كالخبز الجاف أو كالحصى، حين يطبع خدوشه على الرمال..، تجره قدماه خارج حلم ألم به.. ينام على كف البيوت، يرى بعض ملامح الوصال ترشفه..، يحترق معها بعد أن يرى آثاره على قسمات وجهها. ولأنه لم يعد يحتمل ذلك الجمر الذي يكوي روحه، وكل أعضائه.. يلصق ابتسامة تحمل كل أوجاع الدنيا، ويثرثر مشفقًا على تلك الأم الصابرة التي تطلق ابتساماتها النقية رغم شقائها الفظ...

.. هاهي تضعه في حدقيتها.. تفرك رشفات شفتيها، فتفرك لسانها الكلمات:

ـ أود أن أفرح بك يا بُني فها أنت قد بلغت السن المناسبة لذلك. كما أنك رجل ولا كل الرجال.

ـ الزواج يا أمي يحتاج إلى تكاليف باهظة ومصاريف ليست قليلة، ليس بإمكاننا توفيرها، فكيف تريدين مني أن أتزوج، ونحن بالكاد نملك قوت يومنا..!

ـ الرزق على الله يا بني أعطني الإشارة فقط حتى أجتهد وأجد لك الفتاة المناسبة، وفي القريب العاجل. أنا كبرت وأريد من يقف إلى جانبي ويشعرني بأنه من الممكن أن انتصر على سنوات عمري.

ـ لكن يا أمي الدنيا الآن غير الدنيا كل شيء تغير ورغم هذا لا مانع لدي إذا تيسرت الأمور. وليس سوى «توميه» من أريد.

.. ..

.. تطرق هذه الكلمات الصارخة ذهن الأم بقوة..

فيبتعد حلمها كثيرًا، وتهرب معه عيناها إلى الفضاء البعيد. يتمدد وجهه على وجه الزمن البارد.. إمرأة تحمل وجع أبنائها بين جوانحها. تداوي خوفها بالبسملة والآهات. تبحث عن دموعها في دموعها..،

وجهها الطيب بقسماته المخددة رغم آلامها التي عكست شقاء الأيام والسنين، ظل يمنح روحه مسحة فرح وبعض الصبر علّه يجد العمل المناسب أو حتى غير المناسب.

.. يحاصره التفكير وضغط الحياة فكل الظروف ضده،

لم يجد من يسعفه.. تزداد قسوة الأيام.. تكبر.. تتعاظم.. أمعاء الأهل خاوية، مستقبل شقيقاته على وشك الضياع والفرح في منزل الأهل في سبات عميق بل هو غائب حتى النهاية

فماذا يفعل وإلى أين يتجه هذه المرة..!؟

لا بد أن يحاول من جديد. لعل وعسى؟

.. ..

.. يحلق في الهواء على بساط الريح..

يعانق الغيمات وهو يطلق من شباك الحلم بصره صوب الشوارع الكئيبة.. يرشف أملاً ضاع، وقد لا يأتي فمنذ مدة طويلة والمؤسسة تحتضن أوراقه الثبوتية دون أن يتلقى ردًا.. لقد طال انتظاره بلا فائدة تذكر.

.. يقدح ذهنه بعض أمل.

فلربما يسعفه الحظ هذه المرة. فلا يعود كما السابق بقرني بغل نفق..

يعضه عذاب الانتظار.. تهاجسه نفسه، هو لا يثق بهم، فلقد تأخروا بالرد عليه كثيرًا حتى صار يتمنى أن لا تكون انتهت رحلة أوراقه إلى سلة القمامة..!

.. ..

.. تتناوشه الأفكار يمنة ويسرى..

يحاصره الإحباط والعذاب وقلة الحيلة..،

فمن الذي سيوفر الطعام وتكاليف الحياة للأم معروقة اليدين التي لوحت الشمس بشرتها جاعلة منها كرغيف الخبز الساخن الذي يشتهيه.

يفكر في مصيره الغائم، كيف يكون؟

.. لقد ضاقت الدنيا على سعتها في وجهه..

وصار صمته الدائم سيد الموقف في حله وترحاله. يطلق شظايا نظراته إلى أركان البيت المتهالك.. تراوح عيناه بين عيون إخواته، ونظرات أمه الكليلة وهي تتحدث مع بناتها اللواتي يتقن لتكملة دراستهن من أجل لفت أنظار أزواج المستقبل وتحقيق طموح الأم في البحث لابنها عن زوجة تريحها وتسعده.

.. .. ..

.. لماذا لا يذهب للمراجعة..

ربما يحالفه الحظ هذه المرة..

يتأفف.. يتراجع.. لقد بات أكثر ترددًا. كثيرة هي المرات التي ذهب فيها إلى المؤسسة دون أن يتسنى له مقابلة المدير المكلف بالرد على طلبات الخريجين الباحثين عن فرص عمل، خاصة وأنه تحصل على شهاداته منذ خمس سنوات.

.. ..

.. يتذكر والدته والفقر المدقع الذي يلف أسرته الصغيرة دون أن تتنازل عن كبريائها ولو للحظة واحدة فالكرامة عندها كالماء والهواء.

.. تسحبه قدماه..

يتجه إلى المكان المحدد..

يقف في طابور الانتظار..

رجل أشيب يلصق على قسماته قناع الطيبة، والبساطة، يحدق في كل الاتجاهات ويتفرس الوجوه، وكأنه يبحث عن صيد ما:

- أنت ماذا بك، فمنذ مدة وأنا أراك في هذا المكان؟

- أنا هنا كي أرجع أوراقي.

- لي حديث معك نصفه سؤال والنصف الآخر نصيحة

- تفضل، اسأل كما تريد، وإذا أردت النصيحة، فأنا الذي أقدر

الأمور. لقد قدمت أوراقي أكثر من عشرين مرة، فمنذ خمس سنوات وأنا على هذه الحال لم أتلق أي جواب

- نصيحتي أن تختصر الطريق، وتعمل معهم كن عينًا لهم، هناك العديدون الذين يفعلون ذلك، هم يوفرون الوقت، ويحلون مشاكلهم.

- اسمع يا هذا.. أمور كهذه لا تروق لي أبدًا، لن أهدر كرامتي، أنا عين لنفسي وعلى نفسي فقط

- إذن ادفع بالتي هي أحسن أو انتظر..!

.. ..

يزم شفتيه، يجلده بعينيه، ينظر إليه شذرًا..

ثم ينسحب عائدًا بهدوء..

..النجوم تحاكي النجوم..

والطبيعة تصلي إلى الله.. تتقدم ثورة غضب مفاجئ.. ينسحب جارًا خيبته ويأسه، يجتاحه الألم، وتخترق موجات القرف كل خلاياه. يؤنب نفسه بقوة، ويتساءل هل يسعفه الحظ وراء البحر فيما لو ذهب إلى هناك..

يطرد هذه الأفكار التي اجتاحته فجأة والتي كثيرًا ما تراوده في حالات كهذه. لكنه يعرف النتيجة مسبقًا أحلام محطمة، ترقد في أعماق الروح كما الشموس الغارقة في بحر "سيدي بوزيد".

.. ..

..تجتاحه موجات صارخة من الألم..

أحابيل اليأس ترسم خيوطها في عينيه.. بدموعه يغسل آثار الألم والجوع.. يدون آثار القرف عندما يذوي بعض حلم ويغيب متراجعًا إلى الخلف. ويهرول على فرس غاب في الزمن ليسكت حديث الجنون يذهب ويجئ ثم يدور في مكانه ..

يدخن همومه وأوجاعه محاولاً الخروج من حياته الصامتة..

حياة تافهة لا تحمل أي أمل في مستقبل بسيط حتى لو لم يف بالغرض تمامًا. المهم أن يحتفظ بالحد الأدنى من الكرامة. دون أن

يمـد يـده إلى أحد.. تنكمش ذاته على ذاتـه.. تذهب الأنواء به إلى كل الاتجاهات. يفكر مرة أخرى ماذا وكيف يفعل!؟

.. يتمنـى أن يصمـد أمام غضـب أنصاف الآلهة وسـطوتها. لأنه يؤمن بالمباغته في النفاذ إلى ما يريد وكأنه في حالة حرب لذلك لم يحاول الهروب إلى الوراء..

.. ..

..إنهم يحاولون احتقاره كلما حاول الاقتراب منها..

لكـن حدسـة النافذ لا يخيب، فهو يعرف جيـدًا أن الظلم الذي هو رأس الفساد لا يكتب له البقاء، كما دوام الحال من المحال. والناس بطبائعهـم يميلون إلى الفـرح الممزوج بالتمرد والكثير منهم لا يعجبهم مـا يحدث خاصة هـؤلاء الذين يملكون قدرًا من الكبرياء.. لأن نفوس البشر جميعًا تواقة للانطلاق، كما حالها مع التمرد.

فمن الذي يمكن له تخليص الأمهات من أحزانهن..

ويفـك أسـر أزواجهـن، وأبناتهـن، هـؤلاء الماجـدات الهلاليـات اللواتـي يكبسـن علـى جراحهن وهن يشـربن المقت والجـوع ويقمن وحدهـن بدفـع الثمـن..

فما الذي يحدث وإلى أين تذهب الأمور!؟

.. ..

..موجة اكتئاب لافت تنحرف عن الطريق..

ينهـض تجاه الفجر يرفع هواه في وجه ينكمش بين الفينة والفينة، كجلـد حمـار خشـن، أخرجوه مـن الماء، فانسـحب هاربًـا، هنا من يوصـل الأخبار والأحوال للآخرين، هناك من يصمت، وهناك أيضًا من لا يمتثـل، لـذا صارت الأيام في نظره مسـرحًا للمتعـة الخاصة، المتعة الخاطفة والحزن النبيل.. يتذكرها، يحاول أن يفعل شيئًا..

.. الهمـوم الممزوجـة ببهجة غريبـة وصافية، تقوم علـى حضور الأنا ونشـيدها عبر الذات والبحث عنها، الذات بوصفها مركزًا للسكوت الذي اشتعلت فيه روحه وغاصت في الغياب.

.. ..

طيف يتقدم بأرديته البيضاء..

يتقدم منه.. يبتسم في وجهه.. معه جملة من شباب سيدي أبو زيد، سقطوا من أجل كرامة الوطن.. يشير إليهم بإصبعه فرحًا يبتسمون.. ينسحب الطيف..

.. يحضر صاحبه الذي يشاركه همومه فأوجاعهما واحدة..

والبحث عن العمل والفشل فيه القاسم المشترك بينهما..

ينقب في ذاكرته ويفكر في أن يعمل شيئًا ما بهدف الخروج من مطحنة الحياة، ففي النفس ما يعكرها.

والسكوت عن الخطأ والفساد يجعل الجميع شركاء في هذا الخطأ وذلك الفساد، فشتان بين من يملك ومن لا يملك لكن لكل شيء أسبابه، ولا بد من تغير الحال إن آجلاً أم عاجلاً، فعلى هذا التراب ما يستحق الحياة.

.. ..

.. الأرض تجلد رذاذ المطر بترابها بين الأزقة والشوارع..

ومدينة سيدي بوزيد غارقة في صمتها، وغيابها..

البشر فيها ليسوا كالبشر، مقاهي متهالكة، بيوت آيلة للسقوط، شوارع تشكو عذاباتها، وأطفال حفاة، فتيات رائلات، يفتشن في أكوام القمامة عما يسد الرمق.

- هم يأكلون ويفرحون ونحن نشاهد ونتألم، وكأننا لسنا من هذا الوطن

- أسكت وإلا قطعوا لسانك، ولربما رأسك.

- لم أعد أهتم لقد طفح الكيل فأمثالي وأمثالك أموات أحياء وأحياء أموات، والموت أفضل ألف مرة من حياة كتلك التي نحياها..!

.. ..

..يطارده الماضي المؤلم..

وهو ينظر إلى مستقبل يلفه الغموض..

حاضر نهايته قلقة تحمل بصماته التي تعرف كيف تكون النهاية..
يبكي الورد.. والحلم يتنفس رذاذ المقت.. الطاغوت يدلق قرفه على الأرض الطاهرة، ويضغط بكلكله على الناس إنه في زهرة العمر، ولا صديق لهمومه. فهل تبعثره الأيام بين أوراقها. وأروقتها.!؟

.. لقد اختلط على عقله ما يرى ويشاهده وهذا ما أثاره..

صديقه الفقير العاطل عن العمل والذي حاله من حاله.. فقره يستبد به يؤلمه دون أن يسحب منه كبريائه وكرامته، فيحاول أن يشاركه وجدانه بأن يزيح عن كاهله ثقل هذا الوجع.

- لماذا لا ندخل بعض الجمعيات أو الأحزاب، علها تجلب لنا حقوقنا في المستقبل!؟

- الحزب الحاكم هو الأفضل لأن بإمكانه وحده توفير كل الاحتياجات والتسهيلات لأن بيده كل شيء.

- أنا لا أؤمن بذلك فالعديد من هذه الجهات، إنما هي مزارع لصيد النسوة ورصف الأفكار والامتيازات للمتنفذين.

.. ..

..تتشابه الألوان بينه وبين طقوسه الخاصة..

هنا فقر مدقع، وهناك مخدرات ونساء.. وأشياء أخرى تؤكد أن المتنفذ رجل فاسد، ولص مقنع بالشارات والابتسامات، يكسر مراياه.

..يدندن بأغنية حزينة تاجها في الغيم، وأهالي سيدي بوزيد يحملون آلامهم وأحلامهم.. يفكر في شيء فجائي يجتاحه بغتة، ربما هو الموت هذا الشيء الغامض الذي يخفي شيئًا لا يعرفه ولن يعرفه أحد..

- لا تسألي عما بي...، ما بقلبي يظهر على وجهي وفي عيوني فأنا لا أستطيع أن أؤخر قناعاتي الخاصة، فالإنسان يتعود على ما يريد كما يريد وبسرعة فائقة

- نفسي لا تستطيع أن تبارح مشاهد سيدي بو زيد، وما يجري فيها، لقد أصبحت كما غيرها مسرحًا للقهر. وسيأتي الوقت الذي يفعل به

ما يفعله بالآخرين..

.. ..

" يحضره الطيف"

يعصر ذاكرته بقوة..

يحلق بجناحيه المقصوصين في سماء بيته المتهالك، يرى كيف ظلت تمسح دموعها، فيحاول أن ينظر في عينيها، ويتألم لأنه لم يستطيع أن يفعل شيئًا، أن يحقق لها ما تريد تغادره ذاته إلى ذاته. بعد أن تزداد قناعته بأن من له أم مثل هذه الأم لن يخاف ولن يُخشى عليه أبدًا ..

.. ..

.. هي وردة طالعة..

عيونها الفاطمية تختصر تاريخ الأرض..

مواعيدها خبز وماء.. شجر، فراشات ملونة، وفرح طاغ أبدًا..

ظل ينتظر مجيئها في لحظات الشتاء الباردة. ليقطف من شفتيها دفئًا وبهجة.. أول ابتسامة أطلقتها أشعلته وحملته على بساط الريح نحو ضياء القمر، ، إنها "تموميّه البوسعيدية.. ريانة العود التي ظلت تسعفه في لحظات الألم.

.. كل الناس يغيرون أفكارهم كما يفعل الجميع إلا هو..

لهذا يحاول من جديد. فهل يرفض الحياة الواقعية من أجل أفكار لا تتحقق إلا على الورق دون الحياة، أو في الخيال فقط. لقد صار المدى أشد إيقاظًا من نهيق الحمير.. فهو مصاب بالقرحة لا بسبب ما يأكل منه طعام. بل بسبب ما يأكله من وجع وفاقه..

.. لكن أليس من حقه الحياة قطف الكرامة وأن يفتح قلبه لما يناسبه!؟

.. ..

..قلبه ممهور بالذكر ريان بالاستقامة..

عبر بعقله الطريق المتعرج الذي بات مقتنعًا بأنه لن يوصله إلى المستقبل الجميل، بعد أن إخترقه اليأس حتى القاع، فتشرّبه حتى

الثمالة، بات واثقًا بأن الإنسان في هذه الدنيا من الممكن له أن يدمر نفسه بل وكل شيء إن هو عاش في ظلمة الاكتئاب في عصر فاسد مجنون تتعالى فيه الضحكات كلما زادت مأسي من هم مثله، ووقعت المصائب على رؤوس الناس، كقطرات ماء بارد.

ورغم هذا علمته الحياة، بأن الكرامة فوق كل اعتبار، وأن كل شيء سيتغير، فهل يحدث ذلك!؟

..كل شيء قابل للاختلاف فعلاً إنه الزمن وحركة التاريخ.. الطفولة.. الحياة.. ملامح الجدران.. العلاقة الجدلية بين الإنسان والمكان، وهذا جزء من التطور الطبيعي للحياة، وهو ما كانت تردده أمه دائمًا..

.. ..

..تمضي الأيام في سيدي بوزيد في طريقها إلى أيامها هادئة، هادئة.. الجميع رغم فقرهم سعداء، وإن كانوا قانعون بما قدره الله لهم.

لكن أجوافهم تغلي وتشتعل هذا ما يبدو على وجوههم.. وهكذا هي حياة البسطاء. رحل الرجل الكبير بكل متاعه ولم يترك لهم شيئًا سوى الفقر والبساطة التي طالت كسنوات عمره وغربته عن بلدته التي يعيش فيها. هذا ما كان يبدو وهذا ما صرحت به الأم أخيرًا..

..اعتكفت لمدة طويلة..

في محاولة منه لتشريح جثة الزمان.

فمدينة سيدي بوزيد، تحتاج إلى لحظة فرح فضاءًا عذبًا وجرعة كرامة لقد ظل يفكر في هموم الناس وأوجاعهم التي تهم الجميع، لأنها ترتبط بحياتهم ومستقبلهم على اختلاف مشاربهم ورؤاهم. لم يحضر الصديق وكأن مكروهًا قد أصابه، أو ذهب وراء الغيب خلف الجدران،

.. ..

..يلف همومه في لفافة يتيمة.. يتأفف..أنظر إليه، وأنا ألطخ مرآتي بطين حقيقي....

صبح باهت يقف على يدي فأعود بحزن الماء أرشف مداد البحر أتفرس جناح النجمات، أحلم وأشكل من صلصال حزني دمية عندما

يوغل بي ماضٍ عتيق.. يحضرني عالم مضيء كينونته تسبح في أفق باهت معتم وغير مضيء.. يرى نهارًا فوضويًا يرسله ليرعى طفولته الندية، فيفتح العديد من التساؤلات الموجعة، ويفتح أبواب مسرح عتيق يشعل الحكايا، والثرثرة:

- هل كنت وحدك دائمًا يا أمي. وهل لي أكثر من أب، لماذا يلازمنا سوء الحظ؟

- أي شيء يخص الناس، والوطن يمضي أيضًا وبنفس الدرجة، سيعطلون بشكوكهم كل أعمالنا، ويصادرون كل شيء لنا، فهل هذا هو الحلم الوردي الذي عملوا على تحقيقه!؟

- حلمهم أن يعيشوا في هناء. يفكرون عنا. لنا القرحة ولهم كل ما يشتهون ومن بعدهم الطوفان..

- لماذا ليس لنا حقوقهم..!؟

- لا تقل ذلك يا بني طهارة اليد أفضل من كل شيء

.. ..

..الناس أناس من الناس.. يعيش التمرد في نفوسهم. لكنهم عندما يرتقون يجتاحهم الجموح والاستبداد، كما أن فسادهم يزداد كلما ارتفع هواهم أكثر.. إنها ثقافة أصحاب المراكز والكراسي التي تجتاح كامل البلاد وتعيث فيها فسادًا.

.. ..

يحضره الطيف. يشير إليه ويهاجسه كلما اشتد ألمه يتقدم منه.

- الإنجاز الكبير يجعل صاحبه يكبر معه، ولكن المصيبة الأكبر هي السكوت فماذا أقول للكلمات التي تريد أن تخرج من فمي!؟

- أن ترفض أن تكون ضمن خديعة تطالك، وتطلب منك أن تنصهر في أتونها. لهذا أسمع صوتك لنفسك وادفع موجك دائمًا إلى الأمام.

.. ..

.. يسحب نفسًا عميقًا ممزوجًا بهم عميق طالما اختزنه في صدره، وطالما أطلقه ليسعفه في لحظات كهذه.. لقد صار وجع الناس وجوعهم

يسقي تراب الأرض أغنيات الرفاه الزائفة التي يطلقها الزبانية .. بعض رؤى تتغذى من بقايا النبوءات.. يكتوي بالنار واللوعة.. جملة من الأخبار المتوالية.. تحمل مرارة كبيرة، لأنها تتعارض مع القيم والتعاليم التي نشأ عليها هذا المجتمع الطيب، وما يطلق من إدعاءات بالرفاه فرية مكشوفة، إنهم يقتلون الناس يعذبونهم.. يصادرون كرامتهم بهدف إبقاء صمتهم حتى النهاية..

.. ..

.. تمضي الأيام..

تسير في طريقها لا تلوي على شيء، فكل حكاية بدون نهاية، وأمور كهذه لا بد أن تنتهي، ويجب على الإنسان أن يفعل ما يحُب، وما يتوجب عليه عمله، ما جعله يؤمن بأن ما على الرجل الواعي، إلا أن يحمل رسائله بصدق إلى الناس فهو نبي في مجتمعه أو أن يكون مسئولاً عن وعيه على الأقل وحتى لا تكون هناك ثقافة فاسدة..

.. الناس يميلون في غالبهم إلى المحاكاة، منهم المتعبون وهناك المتنفذون الذين يشعرونك بالقوة، وأحيانًا يجعلونك تتقيئ ما تؤمن به وما لا تؤمن به أيضًا. ها هم يرددون قصصهم بأنفسهم، وما تبقى من ذاكرتهم.. حكايا متباينة مغزاها أن لا صُدفة في الحياة، وأن لكل شيء سببًا..

.. اغترف من كف خزنه رشفة اغترب..

يقرر الاتصال بالأهل حتى لا يقلقوا أكثر من ذلك، تؤكد رفضها الطلاق.. هي محقة فيما تطلبه.. إنها تريد بعضًا من كرامتها.. لذا يجب الاعتذار لها أمام الجميع لكي يطيب خاطرها.. هي تعرف أنه يحبها، وأنها إن تركته لن يتركها هو:

- إذا كنت لا تحبينه إتركيه إنه مريض بمرض العظمة المزمن.

- وهل هناك فرق بين المرأة وزوجها؟

- قضايا الناس تهم الجميع لأنها ترتبط بحياتهم ومستقبلهم على اختلاف رؤاهم.

- لكنا شيء واحد... روح ومستقبل واحد أيضًا

.. ..

.. ينظر إلى هذا الذي يحدث، يجره الشرطي من ياقة قميصه، يصادر أفكاره المختزنة، معتقدًا أنها لن تخرج إلا تحت لسع السياط.

- أنا لم أفعل شيئًا..

- لكنك تنظر على الأعوان بشذر.

- لا أقصد شيئًا مجرد التفاتة حصلت مني بالصدفة..

- نحن من يحدد، إن كان صدفة أم لا.

.. ..

.. مطر غزير، كأنه طوفان نوح..

وكأن أبواب السماء فتحت على مصاريعها..

ماذا سيفعل..!؟ يبدو أنه لن يستطيع القيام بشيء البتة. فعندما يكره المرء يخونه ذكائه وقدرته، وينتابه سوء الإدارة، لأنه يكون في حالة فقدان للوعي، والعقل، والالتزام..

.. يغيب وراء الغيب.. يدخل في عالم الرؤى..

ويدق أبواب الأحزان..

.. ..

.. يتقدم منه الطيف من جديد..

يشحنه بالفأل الحسن، فالدنيا تجمع الناس، بأناس لم يروهم.. وأحيانًا لا يطيقونهم. لهذا من الأفضل للشخص أن يكون واقعيًا ومختلفًا، لا بالهروب من الماضي، ولكن بالتقدم إلى الأمام،

.. ينظر في وجهه.

قسماته الصامتة، هموم مكتومة، لا تريد الفكاك منه، ولا يود البوح بها، حتى لا يعكر صفو أحد، ولا يعكر صفوه أحد، خاصة وأنه طرحها في السابق على العديد من الأصدقاء، والمتنفذين دون أن يعيره أحد اهتمامًا عدا صديقه الذي له نفس معاناته ووجعه..

.. ..

.. الطيف يقترب منه.. يتفرسه.

فينكمش على ذاته، يجهده العرق والأرق فينطلق لسانه:

- لقد أحببت الحياة، لكني أردتها أن تكون سوية ومثلى. لهذا رفضت عرض أمي بالزواج، لأني أريد أن يكون ذلك بناء على العقل أولاً وأخيرًا.

- يبدو أن في جعبتك الكثير هذا ما أراه، لكن عرضه الآن غير مناسب، فلا تغرق نفسك، في الكثير من الأوهام والهموم، لذا أرى أن تدخر ذلك لوقت آخر.

- لا أود أن أزعجك، فأنا لا أشرك أحدًا فيما أفكر، وهذا كما يقولون أهم ما يميزني.

.. ..

.. يسحب نفسًا عميقًا طالما اختزنه في صدره..

وهي كما هي ولدت على بساط الشوق، لذا لا غرابة إن ظلت تضرب بجذورها في عمق الأرض والتاريخ، لتقبض على مفتاح حلمها بالعمل.. امرأة عندها من الصبر ألف من جداتله.. تستلقي فوق داليتها، وتأتلق، ثم تلقي بثمرها نحو المحتاجين والجياع.

.. ..

.. يسكب حبر قلبه كي يظمأ العرق..

غربته عن ذاته شدت القلوب، ودفعت إلى الهلاك، قيم تنهدم أمام المصالح، إنها قصة الأمس واليوم، وحكاية كل زمان ومكان.

- لا تتركني وحدي يا بني، فلك في القلب مكانة خاصة، أنت رجل البيت الآن، يجب أن تعرف ماذا يعني ذلك..!

- أعرف أن والدي منذ مرض، لا يرى أحدًا إلا وأشبعه عضًا، لقد أصيب بداء الكلب، ولا ندري ما العمل!؟

- لقد عرفت أنهم عذبوه كثيرًا، ذلك هو سبب ما هو فيه.

- المشكلة في الأمر الكرامة.. لقد هُدرت كرامتنا.. رجل في مثل عمره، يعامل بهذه القسوة، لأنه سأل عن أحوال صديق له في السجن فاعتقلوه، وعذبوه بدون سبب.

- كرامتنا، تقول كرامتنا، إنها ممعوسة منذ أن ولدنا، وحتى نموت، سنظل كذلك.

.. ..

.. بحار من الرفض للواقع المر، تلتهم أمواجها الجموع الغاضبة.. يبتسم لها الطيف، فيصرخ حلمه في الجموع.. قد تبتعد عنا الدنيا، وتغلق علينا مفاتيحها، فلا نجد بين أيدينا سوى الصبر مفتاح الفرج، ورغم هذا ظل يسأل عنها الشمس، ويقطف في حلمه من على وجهها النجمات الساطعة!

.. ..

.. يقترب من أحدهم.. يود أن يشرح لها حاله.. يفكر.. يتردد.. وأخيرًا يقرر. فلماذا لا يبوح معاناته، وينسق مع أصدقائه، ثم يبين ما يريد، ولتكن هذه المرة الأخيرة، فلعل وعسى.

.. تدندن ذاته لذاته.

صوت يصرخ داخله، يدفعه للإسراع، فلربما يحصل على فُرصة العمل، خاصة وأنه حقن نفسه، بالكثير مما يعتقد أنها بعضًا من ذنوبه التي تؤلمه، ومثلها ما يؤلم الآخرين من حوله..

- لكن من الواجب أن تستشير أصدقائك في كل شيء، هذا هو الطريق الصحيح لكل الأمور، فأنا أشعر بالكثير من الألم الممزوج بالوهم، لكن الكبرياء والمكابرة هي التي تُثبتني أكثر.

- لقد فعلت، كما أننا توصلنا إلى قناعة، إنهم يحرثون الأرض بملح الفساد، يدفنون التاريخ، ويدقون سواريهم في صدر الحلم والتراب،

- انتبه لما تقول. استوعب تكرار أغلاطك التي ليس لها نهاية حتى تصل إلى مبتغاك.

- سكوتنا عن الخطأ والفساد، يجعلنا شركاء في هذا الخطأ وذلك الفساد.

.. ..

.. وجع مستقر في الداخل. ما أن يصمت حتى يأتي من يذكي أواره من جديد، يؤكد أن الوهم الذي قاده إلى الحلم مجهول. لربما هو

كذلك، ولربما هي الأحزان. بحيث أن البسطاء أمثاله، وجدوا أن ما ينتظرهم أدهى أو أمّر..!

.. ..

.. لياليه عليلة كالهواء الملوث..

يتذوق السباب، والشتائم التي تجذرت على كامل المسامات وكل الفصول. يصافح بعينيه عيونًا أخرى، تبدأ بالصدفة وتطلق الصلف، ينابيع تدور حول حفرها، وهي تبتاعه بعجالة أنملة..

ارتدى ناره عبر هاتف جوال، ابتاعه من سوق الخردة.

صار يطلق شموساً ينتقل إليها، وعبرها كفراشة سحرية، من أزيز لآخر، ثم يشعل شمعة من هواه، تزخر بالبرق، وتحترق بالماء كلما أراد أن يقرر شيئًا آمن به.

..الأمطار تغسله وتكويه ليلاً..

تغسله وتكويه الأمطار.. وهم يتقدمون بين الدراهم والمراهم، والحقيقة، شعار بلورته ترفعهم إلى القمم، تصعد سهوًا إلى أماكن عقولها، لم تؤثث بعد، وجداول مائية بصفحاتها المهزوزة تحمل بصماتها الساخنة للإجهاز مؤقتًا على وجع ذهب ضحية صمت ظل تائهًا قبل أن ينطلق من عقاله.

.. ..

خطوات محسوبة بصراحة..

ووضوح أبق يرفع عنقه عاليًا..

الأيام ملتحية بالفتاوي التي تمجد السلطان، وتحمد عدالته القاتلة، والأبواب مغلقة، وهو أنا تسافر في أناها، بين ذاتها وذاته تقف ثقافة الصبر، والصبار، الجموع واقفة تصرخ، واللهفة سيدة الموقف، وزعيم أعسر الذهن يحتضن بيمينه، ونصائح جوقته بعض الشكوك في كل أفراد شعبه. ومع ذلك يظل يحلم بمال قارون، وليالي شهريار، وكيف يفكر عنهم ويحدد لهم مصيرها.

- اذهب إلى وجعك مارس بوحك فأنت من يهم الوطن، ومن يهمه

الوطن الآن.

- الحالم يحمل على كاهله مشروع تعميد العالم، فما بالك بوطنه، لذلك يستمر.

- التغيير واجب، وحب الوطن نعتد به.. ألم يحقق لنا بعض ملامح ذاتيتنا، وخصوصيتنا، إنه يُحب التغيير، لذا يجب ألا نخذله.

- كل مرحلة.. ولها رجالاتها، ونحن لها.

.. ..

.. لا زال ينتظر أمام المؤسسة..

تأخذه الدقائق يمنة ويسرى..

.. الوقت من نحاس إنها مرحلة ما بعد فرز الأوراق، إعلان النتائج التي تحدثوا عنها كثيرًا.

- لقد كان الامتحان صعبًا للغاية، أما اللجنة فحدث ولا حرج. إنها لجنة معقدة، لجنة المحسوبية والوساطة، أو على الأقل المحاباة.

- ومتى حدث هذا، متى كان الامتحان ..!؟

- لقد حدث ذلك في الأسبوع الماضي وما زال يحدث. إنه في كل لحظة قاعدته المعروفة الاستلطاف. أو ادفع ما تيسر..

- هذا يعني أن لا فائدة.

- القوانين والنظام. كما العدالة، لا تخيف أحدًا. الذي يخيف هم البشر، وتفسيرهم الخاطئ للقوانين بما يرغبونه وكيفما يريدون.

.. ..

.. يستمع لثرثرة جانبيه..

يشيح بوجهه عنها. فمنذ أن جاءت على رأس مجموعتها، وهي تحاول جذب الناس إلى طروحاتها. مبينة أنها الأفضل وإن عندها علاج لكل العوائق، البطالة. الفساد، القهر. وما إلى ذلك.. لا يلتفت إليها. كما أن أذناه وكأن بهما وقرًا.. فالأيديولوجيا لا تشبع البطون الجائعة. لقد قرأ كيف كان العالم في السابق إما إلى اليمين أو اليسار، مع الشرق أو الغرب، أما الآن فهو مُعولم أو غير مُعولم، خاصة بعد أن سقط اليسار، وفشلت تجربته، لذلك لا يجوز أن تظل رهاناتنا عليه قائمة بعد فشله

الذريع.

- لا تأسف على ملك ليس لك منه شيء.. حتى وإن كانت القشور.

- الخوف هو الارتباط بالآخر الذي لم يرحمنا في السابق، وهو كذلك لن يرحمنا الآن.

- العمل، الصدق في بلورة فعل الذات، ودون اللجوء لأحد.

.. ..

أمور من هذا القبيل تناوشها رياح الأفكار وتدفعها.. جعلته يتعمق الأشياء بمعناها الحقيقي، لذلك يعطي الفضاء لونًا لغناء جميل.. جميل.

.. " سيدي بوزيد، مدينة حالمة.

تقدم ماكياجها لماء النار.

مرآتها مستبدة، قريبة من منديل ورقي. يتمدد بشنطتها التوأم ورؤى مشفوعة بالابتسامات المسموعة. والمسموح بها بالانزلاق والتربص، للحزن فيها ضفائر وحكايا.. دوائرها دم وضحايا.. هكذا أخبره عقله الباطن، فتأكد أكثر أن ما كان يعرفه، ما زال يعرفه. لا زالت تندلع شطائر موته على صفائح القلوب المحبة.. وكلما تراكمت خطاياها على سفن من الخلود، أمام حشود الفضيلة، ترتد المسامير إلى صدور أبنائها، فتتجمد أرصده حبه، وتسكت.

.. ..

.. يفكر فيما يشاهد..

فمنذ مدة وهو على ذلك الحال..

ينكفئ على صدرها بارتياح، والثلج المنثور على زخات النار، يربت على جبينه بمنديل أزرق، ويصفر في غابة الأعياء ملء شدقيه.

.. تقف الحياة على يدي تصادر الابتسامات..

ولا تخدعها الدموع في الأحداق المحترقة بدموعها الساخنة. لا يمكن لك أن تستجيب لدعوة أكبر منها. ينظر إلى صديقه الذي يشاركه همومه.. يسأل عما حل بأوراقه... فقسوة الحصول على الخبز تلاحقهما

معًا تهدر كرامتهما في زمن عديم اللون والطعم، وقديم الرائحة..

..لاشيء جديد..

فقدان الأمل، واليأس سيدا الموقف. فقط أقانيم ثلاثة تبرز دافعة للغيم نحو ظلال الأرض، تنغرس في التربة، تصفع الحديد، والإسمنت، ورجل يقصف شاربه الكث بكلماته المتتابعة، وجهه الملفع بالحمرة والخجل، التقزز، يسحب كلامه من دمه..

تنسحب ألوان مشفوعة بالبهتان من دوائرها.. ساحبة شظايا سنابلها المعلقة تختزل ألف مرة زلازلاً مجللة بالبرق، ورضاب الأوزون الخارج من رحم الغيم.. يبتسم.

.. ..

تتقدم منه، يتقدم منها.

تصبح الفتنة وتلافيها جوازًا للشرعية، وعندما تمطر الأيام لياليها العزيزة، سهدًا، وطواغيت دم. ينطلق.

- الوطن ليس قطعة أرض ومبان فقط، إنه حنين وارتباط ما أو أكثر.

- يبدو أن هذا الرجل مُخترق من خاصرته.. أتعرف لماذا؟! لأنه سياسي يبحث في عينيها عن كل مديح بابتسامة متوجة بماء البحر ترتدي خريفًا ساخنًا، حتى لو لبست ثوب الفجيعة.

- اختر من واقعك ما يناسب حياتك. فكل شيء يبدأ من الواقع.

- قف واقترب سأحضنك كي أشم فيك رائحة الأرض.

.. ..

.. الحروف محظور وقوفها على شفاه الفقراء..

تجعلك لا تعرف بالضبط فيما إذا كنت منفيًا من الداخل، أم هو الترويع والخوف من الحياة!؟

مأساة البيت، هي مأساة المكان، وأمٌ رغم أنها شاخت، لم تشخ أحلامها. لقد أرضعت أبنائها حليب الصبر والجلد، حليب الأنفة. وظلت تقف بين المطحنة والمطحنة، ملفعة بصلابة الفولاذ، ونعومة الحرير،

تحدق في عيني ابنها الطيب المسكين، مؤمنة بأنه لا بد أن يشرب الجلاد من نفس الكأس التي سقاها ظلمًا لخصومة المُفترضين من الناس البسطاء..

.. ..

لقد ظلت تحمل العديد من المصاعب، فتحملها المصاعب إلى آفاق بعيدة..

.. ..

..أنظر حولي..

أتدفق لظى وحممًا.. وأنا أفكر في هذا الذي يجري، ويحدث، وأتساءل عن تأخر قوانين الخلاص.. تقف الحياة على يدي، تصادر الابتسامات، ولا تخدعها لحاظ الأحداق المخترقة بالدموع الساخنة.

هي لا يمكن أن تصمت ولا يمكن للسكوت النيل منها. إنها تستجيب لكل الدعوات. حتى لو كانت أكبر من ذلك، لقد كانت المرة الأولى، التي أشعر فيها بأن هناك من لا أبدله بكل كنوز الدنيا. إنها الأم التي يجب أن تتجاوز الجوع والعذاب الذي سببه هؤلاء الذين تأكدوا من غفلتها التي لن تستمر طويلا.

.. ..

اشراقة مجللة بالنوى تفتك به.. تدفعه للتطلع في وجهها المخدد.. النخر

- أنا أمك، والأم لا تكره لابنها الخير. أنا لك، وأنت قطعة مني، إذا كثرت المخالفات انتبه جيدًا ، حتى لا ينقلب الحب إلى كراهية. إنهم أناس لا رحمة في قلوبهم.

- لقد حسبت نفسك، داخل نفسك وهم لم يراعوا فيك ذرة إنسانية واحدة، وسلوك كهذا يقتلك ويؤلمهم أكثر من الغير.

.. ..

.. السماء غارقة في النشيد..

خصلة شعر مخضبة بالدم والحناء، تتغنى أجراس "حنا بعل" وهي

تسطع في الظهيرة، والندى وطن يضج بصبح يطلق النعناع، ويرسم وجهًا بلون الخضاب، كحالة من حضور ذوائب "قرطاج" عندما تمشطها، عوليسه، وهي تحمل سارية الذي هرب من الشوق وتخيط مدينتها على جلد ثور، تحاكي القمر الذي لم يتنازل عن عرشه عبر لهيب الانتظار.

- اختر من واقعك ما يناسب حياتك. فكل شيء يبدأ من الواقع.

- في قلبي آخرون غيره، إنهم أولادي، وأنت تعرف كم تعذبت من أجلهم.

- حياتي مشاكل وعذاب، ورغم ذلك فإن عذاب الحب، والانتماء شيء جميل ورائع.

.. ..

.. يصمت... يختبئ في زوايا نفسه..

لقد أشعلوا أنفسهم بهمومهم المتراكمة، وكان حلمه واقف معهم. رائحة الجوع، تزكم أذن المذياع، يحاول أن يوقف الطنين الذي يصفعه، ويفلق رأسه إلى نصفين فيصفعه بدوره، وبلا مبالاة. وسيدي بو زيد، مدينة تحلم بالخبز والحرية، وهو لا زال يحاول الوصول. لهذا أصبح ومدينته شيئًا واحدًا.!

.. إشراقة دائمة، وضحكة نجمية لا يخطئها الزمن ورجل لا يمكنك إلا أن تحبه..، شامخ عنيد في ثوابته، عينان سوداوان تخفيان شجنًا أكيدًا..

.... يتوغل شوقًا بحب الناس....

يطرق الأبواب والمصاطب. يقف شامخًا.. يتنفس ريح الأرض، المزارع، وحكايا الفلاحين البسطاء، يبحث عن لحظة عطر جميل.. وعلى عتبات تقويم سنوي جديد، تدخله جرعة.. جرعة ثم تتداح في خلاياه فرحة مسرورة..

٢

.. ..

.. ظل حلمي تألق قصير..

وكذلك صار حلمه، وتبلورت طموحاته..

غيوم الهموم تملأ كأسه، فيتمنى أن يسطع صباح يوم جديد، علّه يتخلص منها، يحاول أن ينثرها، لكنه لا يقدر، لقد اعتبرها قناعًا يلقيه متى شاء. وكيفما شاء، فهو يعرف أن هناك عالم لم يصحو منه، لكنه لا يريد أن يصحو منه بهذه الطريقة إن حدث ذلك قد نغرق في دوامة الماضي، فنتوه في بحر الحب، حينها لا يبقى من القلب إلا بقاياه.

- إذا ذهب العقل، ازدادت الغشاوة على العيون، وإذا ذهب عمر الإنسان لا شيء يعود، ففي غمرة الظلام يظهر الضوء، وتقطف فضيلة الصبر.

- الإنجاز الكبير يجعل صاحبه يكبر معه، لكن المصيبة الأكبر هي السكوت، سكوت الناس، وصمتهم عن الخطأ فماذا أقول للكلمات إن هي رفضت الخروج من فمي!؟

- إن ترفض، يعني أن لا تكون ضمن خديعة تطالك، وتطلب منك أن تنصهر في أتونها لهذا أسمع صوتك لنفسك قبل كل شيء..، وادفع موجك إلى الأمام.

.. ..

.. الأيام تجري بسرعة..

الكرامة غالية، الجوع كافر، والفقر ما زال عاطلاً عن العمل، بل إنه لو كان رجلاً لألقى به من شاهق، إنه غربة النفس والروح. الغربة الحقيقية التي تتفصد وجعًا، وقرفًا وامتهان الناس لبعضهم البعض، انهدام الحب والانتماء، ولأن الهوى مسألة تفرك القلب نعانقها.. بعد أن نأخذ منه رشفتنا الأولى... تجتاحنا العواطف الجياشة، يصبح الوقت

بضعة ألوان تثمر جنونًا، وقرفًا، فالولاء يباع ويشترى بالمال، والمصالح الخاصة.

.. قوافل اللظى تتطفئ كالرماد..

فيرتمي لحمه على صدأ الطرقات. كل شيء سهل ومباح لمن يدفع، لأنه سيملك والذكي ليس هو الذي يريد أرباحًا بل ذلك الذي يعرف كيف يقلل خسائره.. لهذا يصبح تشتت الذهن، والمطبات النفسية التي تهاجم الفرد بين الحين والحين أبرز فداحة من الألم. قال لها ذلك، وهو لا يدري إلى أين سيؤدي به هذا الطريق.

- وهل أنت راض عن نفسك؟

- كيف لا.. أنا لم أضع نصب عيني ما أريد، إلا بعد تفكير عميق.

- يا لجماعية الوجع والحرمان عندما تطرق الأبواب والعقول إنها تفتح الدروب المقفلة.

- كل المهايع تؤدي إلى القصد، المهم الصمود وعدم الاستسلام.

.. ..

.. تطوقه الجدران السميكة..

تباغته العواصف، وهي تفتش في دواخله عن أثر الماضي، فتهرب منه أجمل الأعوام، يحسن دفء أنفاسها العطرة.. يتأسف لابتعادها عنه، ويود لو بقيت تلبسه، حتى يتشاركا هدفًا واحدًا، هو قطف المستقبل، ولكي لا تبقى حالة الحزن الطويلة إلى الأبد، ولكي يظل كل شيء على ما يرام.. يسافر على جناح الوقت عبر قوارب شمسية تنطلق إلى الأعلى..

روحه تضيء عتمة المدينة. نجمات حانية تطرق الأبواب دون استئذان تشعل نفسه فيعرف أنه عندما يتم اللقاء يصبح للحياة لون وطعم آخر.. يغوص وجدانه في لحم الماضي.. الأتربة تصفع وجهه صباح مساء.. زوجات الجيران ينظرن إليه باحتقار وتقزز.

- ما هو مقدر أن يكون سيكون وللرب وحده سوف أبوح بالسر، كما أنني لا أستطيع أن أعود للخلف.

- كم أحلم بصباح أبيض جديد.
- أنا مثلك مخلص وفقير، لا أملك سوى قلب صادق ونظيف.

.. ..

.. تهمس في أذنيه..

تدعوه لتجاوز الجرح الذي سببته تلك النظرات المخملية، حتى يستطيع أن يفكر فيما يجب أن يفعله. وهذا يعني أنه لا داعي للاهتمام بما يجب أن يكون، وأن المستقبل كفيل بتناسي كل الآلام والأحزان، فهناك فرق بين الجبن والخوف، وكلما كانت الحياة صعبة، كلما كان الانتصار أجمل، والسعادة أعظم، وأحيانًا يصير الصمت أقوى من الكلام ..

.. ماض أحمق يطارده ومستقبل مفترض يلفه الغموض..

تتلاحق الأحداث التي ستحمل جل بصماته فيما بعد.. كان يضع رأسي بعد أن يعصب عيني في ثقب الحمام. لقد ظلت هذه المأساة مثمرة، والأسوأ من ذلك أنه كان كلما هزه الشوق، يضع وطنه في كأس جعة.

- هذا رجل بحاجة إلى طبيب نفسي يساعده على حل عقده النسائية.
- إنه يعتبر أن هذه أمور خاصة وأسرار يجب الاحتفاظ بها كنوع من الفروسية.
- كثيرًا ما كان يفخر كيف ظل يرفع رأس أمته عبر السرير.

.. ..

.. صار يعي ويفكر لماذا يسحبه الطريق.. من أنفه كلما لسعت قدماه حرارة الأسفلت.. فهو يعرف الأن عنهم كل شيء.. وإن هو تكلم فإنه سيكشف أمرهم. وإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، والزمن أحيانًا يحاكم حسن النوايا، فتذوب المبادئ في اللهفة.. لقد دخل عمق مشاعر الناس، لذلك استطاع إيجاد الحل المناسب.. من أجل ابتسامات الأطفال والعجائز. هكذا أخبرته البلابل والفراشات الملونة، لكن من بإمكانه أن يدق الجرس، ولكي يرى الفقراء

الدنيا غير الدنيا من الذي سيبادر بقرع الخزان..!؟

- السياسة لا تعني أن نتخلى عن الأخلاق، والحقوق تكون وتؤخذ بالفعل، لا بإلقاء النصائح.

- هذا كلام ليس من السياسة في شيء، إنه حديث للحياة والمستقبل والناس فقط.

- عندي إحساس بالخوف، والنهاية القريبة. لا أدري كيف..!!

.. ..

.. لقد أعاد له هذا الحوار وعيه، الذي فقده منذ زمن..

ورغم أنه لا يعرف ما هو المُخبأ له، إلا أنه أخبرنا إنه ليس بإمكانه العيش بدونها، فهي أو الموت.. هكذا ظل يخبرها. إنه شخص مختلف، لا بُغية له. إلا أن يرى والدته، تلبس أثواب السعادة، رغم أنه يعرف صعوبة ذلك..

.. ..

ينظر في وجه صديقه المعذب يحدق في عينيه الشاخصتين إلى السماء، ويسأل الموت هل قتلته قصائد الكرامة والفرح. أم قتله الجوع!؟

تداس الكرامة.. يذوي الكبرياء. ولكن لا بأس أمام قسوة الظروف.

- وضعك البائس يؤلمني، كما هو حالي. فكيف تتدبر أمرك!؟

- أنا أمتهن الشهادة!؟

- ماذا وكيف.. كرامتك.. وهل (!!)..

- إنها تفي بالغرض. فلماذا لا تحاول أنت كذلك.

- لا والله لن أفعلها، ولن يكتبها عليّ التاريخ.

.. ..

يذهب دون أن ينبس بينت شفة..، ما هذا الذي يحدث. وما هذا الذي يراه..!؟ الفتى المخملي لا يريد أن يعمل، والده يكفيه ما يحتاجه، كما أنه لا يحب التعب، إنه شخص آخر، رجل سيء الصيت والسمعة،

يعشق النساء وأشياء أخرى.. تجتاحه الكوابيس، فيرتب فيها هواه، لأنه يعرف نفسه جيدًا.. يذهب نحوه بذهن حاد، وحدس خاطف.. يسير بهمة ونشاط مخترقًا المسافات النائية.. فلقد طرد الخادم، لأنها طردت الشيطان الذي لم ينجح في بث سمومه فيها. بأن يُمضي معها بعض الذكريات. لقد سقط ضحية نزواته سقوطًا كبيرًا. كما أنها حافظت على بيتها ليس من أجل التقاليد وحديث الناس، بل لأن قناعتها أكبر من ذلك بكثير.. رفض الخيانة، كما أن لغة الأرقام التي حاورها بها، زادتها ثقة في نفسها. بقدر ما زادتها في نفس الوقت احتقارًا له..

.. ..

.. صار يتبعها بنظرة كمرآة تعكس نجوم السماء..

يتذكر والدته وإخوته، وهو ينظر إلى ما حدث ويحدث حوله، يتقدم منه حنين إسفنجي رخو ويرتفع أمام ناظريه غضب يشكل حالة أولى من حالات الفعل، فيسافر في بحار التوق، يتذكر كيف ظل سوء الحظ يرافقه كظله، كلما اختلطت ألعاب الطفولة بالسياسة. يومها ضاع منه كل شيء.

.. ..

..أنظر إلى ما يجري بعقلي..

أقيم على ذوائب لحظي، أرى سماء تعصر لظاها في دمي، فيقبع على وجهي طلح شائك، يشرب عطشه حتى الثمالة. فأطلق كلمات نحيلة خالية من الكلسترول، بذائقة متطورة، وطلاقة تمتلك زمام أمرها بقوة.

- سأمتلك الماء والخضرة، والوجه الحسن، وأنتظر، فها هو كل شيء ينطلق نحو الفجر. حيث يتبرعم الحلم والمستقبل.

- إذن عش لحظاتك بكل همومها، انطلق خارج ذاتك، وابدأ من جديد، لأن فيه الفائدة.

- الأمور بخواتمها. وقلوب خلت من الحب والرحمة. لن يكتب لها النجاح، ولن تستمر.

.. ..

.. تذكر كيف انكسر عمود هواه. من أجل عينيها. وهم يمتصون أصابعهم، ويرقصون على صفحات ليل ساخن... قوارب شمسية تنطلق إلى عالم النجوم.. إمرأة تشتعل بهواها، تحاكي أرضًا تنبت الألوان. والأسماء. عناقيد مغلقة في سلاسل الضوء، تبتسم للأحمر الوردي.. وميض للحزن الضاحك، قطوف ناعسة، ومفاوز لا تنتمي للهمسة الطائشة، تعانق نقطة ضوء تستيقظ في الرماد. توق عصي على البوح يدخله البنفسج فيعبره هواها ولظاها، يعانقها كلما أزفت لحظة ندى، تمسح برضابها حلم أيام قادمة، ينتظرها، وتنتظره..

.. ..

.. في أذنه تهمس نخلة تلقى بجدائها في مهب الريح. يدور حول نفسه، يحاول الهرب، يُحكِم على وجهه الغطاء ويهبط حتى العواء الأخير، يشرئب حول أفقه، يصبح طليق هواه، وهو يستسلم لها طوعًا، ويقشرها قطعة، قطعة، ثم ينسج من أحلامها بساطًا سحريًا يسير عليه فرحًا، ويحدق في الحائط دوار فجائي يكبله.

وحيث يكاد يقفز من بين ضلوعه، يقف أمامها، وفي عينيه ذلك البريق القديم.. هو لا يريد الشفقة، فقط الحب والاحترام.. يغوص في ذاته..

شوارع نفسه يراها مرصوصة على جانبي الطريق. تحاول فوانيسها أن تضيء نفسه المطفأة، وطرق جانبية يكبلها رذاذ الضباب، والقبل المحرقة، تلهب الشفاه الظمأى، وتهاجر إلى مبتغاها حمم لأرواح ثائرة، تحكم طوقها حول عنقه. تعلن الأيدي التحامها به. ومعه.. لقد صار يعتقد أنه وحيد لأول مرة لذا يجب الخروج من بوتقة ذاته. وينطلق.

.. ..

.. إنها التناقضات التي ظل يعيشها..

يتفرسها، وهم يرقصون على جراح نفسه، ويحاولون تخدير عذاباته، لقد اعتاد الانتماء إلى ذاكرته كلما هزّته، وخدره الألم، واجتاحته

الأزمـات، ذاكرته المثقوبة تتسـع ثقوبها، كلما عضته النوب التي لم ولن تنتهي، وكأنه في عقد دائم معها، أو أن حظًا تعسًا يلاحقه..ينظر إلى وجه والدته كما يفعل دائما كلما يعضه الوجع...

ها هو يستحضر هذا الوجه الطيب، يحمله بين عينيه، ويظل سائرًا فـي طريقـه إلـى حيـث لا يدري..على جانبي الشـارع أشـجار مشـدودة أغصانها تنظر إلى عين الشمس، ثم تدفع إليها رسائلها الخاصة طالبة منها رفدها بالماء، والهواء وبعض شعاع.

..الأغصان تطغى على أفقه، وتندمج به..

يلتقط أنفاسه، يحدق في الفضاء، ويحدق في وجهه الطريق الثعباني الطويل..يتربـع بذهنـه في فلك الكـون، يصفع صمتـه المعهود، وينظر لأطفال الشارع الذين يلعبون فرحين وهم يمزجون أحلامهم بالجوع ..

.. ..

تغوص عيناه في ثنايا المكان..

يلتقط هواها، وتلتقط هي شوقه المخنوق.

تسير به عبر شطآن الظمأ الأزلي..يتقمص أوراق ذهنه دون ترتيب.

يتقدم ومضة أخرى، ويتوقف..

ينزف نصف وجهه ألوانًا متساقطة، مُتشحة بالسواد، يستقبل وجده الغاضـب يلتف حـول ذاته، يحـاول أن يصل إلى أطـراف اللحظة، وهو يفتش في حدود الرؤيا، عن رؤيا ما زال ينتظرها منذ مدة.

.. يتقدم مرة أخرى يعضه الخواء..

الأسـمال الباليـة نتـوءات تلتـف حـول الخاصـرة، ممتدة نحـو غبار المسـافات، الأضواء ترشـف الرياح العاتية بخيوطها الذهبية، تتداخل أصوات لا يعرف مصدرها، ، ،وينطلق الحوار عاليًا ..مبتورًا..

- اذهب إلى وجدك ومارس بوحك.

- فلست أنت من يهمنا الآن.

- صاحب المبدأ يحمل على كاهله مشروع تعمير البلاد وإنقاذها لذا لا بد أن يستمر .

- كلنا نحب الوطن، لأنه يشكل ذاتيتنا وخصوصيتنا.
- كما أن كل مرحلة..ولها رجالاتها.

.. ..

.. الزمن يجري بسرعة.

الجوع كافر، والفقر عاطل عن الحياة، والفعل، لو كان هذا الفقر رجلاً لألقي به من علٍ..إنه عصب الغربة والألم، غربة الذات عن نفسها، والوجع الذي يشتت الفكر والقلب، ويهدم الحب والانتماء.

.. ..

.. هدأت عذابات نفسه، وسكنت بلابلها..

كثيرة هي الصور الملونة التي غابت في الذاكرة، وسقطت على الجدران..لقد ظلت الحقيقة تدخل القلب والعقل، لكن ما شاهده وشعر به خلاف ذلك. العدل الذي يطلبه ليس أكثر من انتقام مختلف، جعله يضع ملامح رؤيته على عتبات الحقيقة فيقفز إلى الأمام... يحاور طيفه كلما اشتدت نار هواه..يقف أمامه بندول عقله طارحًا العديد من الأسئلة.

هو هكذا كلما أزفت الظروف.

ووقعت الواقعة..أشار إليه ..تحركت شفتاه مبينة أن شعوره الرهيب بالمسئولية هو الذي سيقتله، يعذبه، لذا سيفعل كل ما تريده هذه الأم الشقية الصابرة سيحاول ذلك، مهما كلفه الأمر، رغم أنه متأكد أنه يقوم بمحاولة خاسرة لا أحد يشعر بها سواه.

..إنه يكره الظلم في عيون الناس..

يعشق الصبر، طهارة اليد، والذل، لذلك يشتاق لكل تفاصيل بيته البسيط، كلما عضه الوجع، وانتابته موجات الحزن. تنطلق عيناه باشارات دافئة إلى أمه..وهو يضع رأسه على ركبتها...

..هنا الأيام والذكريات وحكايا الطفولة التي عشتها في هذه الحجرة..هنا تعلمت كتابة حروف الحياة الأولى وخطواتها..

.. ..

يسترجع وعيه الذي غاب عنه للحظات..

يصفعهم بقوة، يتفل في وجوههم في عقله. يتأفف ثم يتمزق ألما وهو يسرد ما رآه من ظلم بعض الناس للبعض الآخر..وكيف أن أحدهم كذب المجني عليه، وابتسم في وجه المعتدي الظالم..

- لا أستطيع انصافك دون وجود دليل، أو قرينة، تثبت وتؤكد ما تقول.

- لا يمكن أن تنال الطمأنينة والراحة ما دام أمثال هؤلاء هنا.

- لا تحرم نفسك من الحلم الذي غيبوه عنك في الواقع لأن لا أحد يحتاجه أكثر منك.

.. ..

..يحترق شوقًا بحرارة المشاعر الملتهبة التي التصقت به...يستحم بعطر الإيمان.يدخل باحة المسجد التي تفصل بين عالمين متناقضين.. تضغط عليك نفسك محاسبة إياك بقوة، فتصفع وشوشات ابليس... وتشرئب رؤاك.

.. ..

الحياة تسري في عروق البيت المتهالك..،

يغوص ضوء باهت في التواء الزقاق..يعانق أقدام البسطاء من الناس، أنوثة عفية تسير على الطرقات..الألسن تدور في الأفواه..مئات الأيادي، والأرجل تلطمه..وتركله موبخة.

- نحن ننتمي إلى أوطان لا تلبس ذاكرتها إلا في المناسبات وعبر نشرات الأخبار المميزة..ونخلعها عندما تطفأ الأنوار، مسجونين بالهزات النفسية، والانفعالات المتطرفة.

- الندم هو الخطأ الثاني الذي يجب أن نقترحه، كما أن الليل خارج عن الزمن وعلى القانون.

.. ..

..لقد رفض أن يظل كيانًا معطلاً، فهو يعرف أنه كلما حاصرته الظلمات يصبح الليل سيد الموقف، والانتصار يأتي من تراكم

الصـور، وفهـم ما تتطلبـه الظروف والأحـوال، وعبر الإصـرار، وليس الاختيـار . يتقدم منه الشـارع..تتقدم منه عيـون الطيف..تذكر كيف رفض ما شـاهده في المندل، عندما جعل رقـص الزار بعضا من هواه.. رغبة، وهروبًا..يومها عانقته الأحلام بعد أن تركت هواها يتسـرب إلى خلجاته فيقرر أن يفعل شيئًا..

- الـولاءات تبـاع وتشـترى بالمال والمصالح الخاصة، فلا تتسـرع في قرارك حتى لا تندم عليه.

- السعادة لها ثمن فإذا أردت الحظوة بها، عليك بدفع الثمن.

- الوطن كرامة والمكان الذي يجد فيه الإنسان كرامته هو وطنه. والعار ليس في نقص المال بل في ضعف النفوس.

- هـل يعنـي هـذا أن الكرامـة لمـن يدفـع أكثـر أم لمـن ينجزها، ويقدمها..؟!

.. ..

.. مازالـت صرخـة أمـه تدوي فـي أذنه..كأنها طعنة خنجـر من نار.. لقد ظلت تتألم كلما عاودتها ذكرى الألم..يوم أقاموا بجوارها تماثيلاً لعهرهـم.. يعـرف ذلـك، ويتألم ثم يمسـح وجهه بابتسـامتها وحوقلتها، ويمضي لا يلوي على شيء.

.. يتنفس الصعداء..

وهـو يغـازل رءوس الشـجر...الطبيعة هنـا عجيبـة... وغريبة..وبـاردة أيضا..

توضـح مدى أهمية الشـمس، النفط، ووحده العـرب، يلّفُه هواها، كلمـا افتقد الدفء..هو يريدها أن تسـبح في روحه، في كله..لتصفع الرطوبـة التـي أكلت نصـف أحلامه في بيتـه المتهالك. لـذا يغرق في عينهـا كلما تقدمـت منه غربة من غرباته، ويتوغل شـوقًا بحبها وحب بلده.

- لقد عاندتني الأقدار، عاقبتني السـماء، لذنب أجهله، أنا لا أعجز عن اتخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب.

- هو كذلك فما رأيك أنت!؟

- رأيي هو رأيك لكن الصبر طيب.

.. ..

هـو من الذين يعزفون لحن هواهم..إنه من ضمن أفراد الجوقة..، ظل معهـم يصـول ويجول كلمـا طلبوا منه ذلك، إلـى أن نفض ضميره عنه غبار العفن.. أصبحت رغبته جامحة في أن يتخلص من همومه الفردية، وباتت علاقته مع الجماعة باهتة..، هناك أناس تشوهت أجسادهم، أما هو فقد تشـوه من الداخل، صار يتساءل: الحياة قصيرة فلماذا يقضيها البعض في الكذب والنفاق..ويضحكون على الناس باسـم ...التعاون، والعدالـة، واللحمة الواحدة، وفي نفس الوقت يلعبون وغيرهم، وهم لا يجدون شروى نقير.

- الحقيقة المرة، أفضل ألف مرة من الوهم المُريح.

- أحـب مـن الرجـال من هـو مثلك خاصـة إذا رفعت صحـوة الضمير عنقها.

- لا تتحـدث عـن ذلـك فهـذا أمـر لا أريـده أن يتكـرر أمامـي، رغم صحته.

- لماذا هذا الموقف ..!؟

- لأنه شيء طبيعي، وهو ما يجب أن يكون.

.. ..

..تسـطع الشمس المشـرقة للمرة المليون ترسل بسماتها على عتبات الشوارع الفقيرة المتربة في"سيدي بوزيد" إشراقة دائمة تعانق أحلامهم.. أطفـال رائلون، يضحكون، ويلعبون بحبور بالغ، يرشـفون فقرًا مغلفًا بالفـرح الغائـب، وضحـكات لا يخطئهـا الزمـن فـي كل ومضـة من شـوارعها رجـل لا يمكنك إلا أن تحبه، يشـعرك عندما تجلس وحدك فـي الفضاء أنك حر الإرادة، ولكـي لا تقدم على حماقة ما، ظنًا منك أن حالك سـيتغير. هنا تقبض على عنق أحلامك التي لن تتحقق يومًا ما دامت الخيمة مهترئة.

..لا أحد يعلم ما يجول بقلبه..هاهم يسرقون من الناس الفرح، هو يعرف ذلك، ويعرف أيضا، إنه إذا دخل الفقر من الباب، هرب الفرح.. وبالتالي الكرامة من الشباك، لذا صار ينقش همومه في ثياب محنته، ليقبض على بعض أسباب الأمل، ولكن دون جدوى.

.. ..

..يرصد أحداثًا ليست ناعمة..يدخل حياتنا دون استئذان..يستولي على القلوب والوجدان، فيقودنا إلى حيث لا ندري، أهو موت هذا القادم نجهله، أم أمل نرجوه، كلاهما حبتا عقد في عنق الأيام القادمة..

.. ينظر إلى أعلى، يرفع عنقه عاليًا..

صوت خارج من عبق الفيض يعلو شيئًا، فشيئًا..يصرخ ألمًا معتقدًا أنه يعيش كذبة اسمها الوطن، ولأنه يعيش على هامش الحياة كم رغب أن يراه حمامة طليقة تحط أينما شاء وكيفما شاء..

..كان يتحدث بألم ووجع..

كنت أضعه بين غياب وغياب..يقف وحلمه تحت صداع واحد.. الأضواء تتكسر على أسفلت الشارع، تبعثر الناس ارتباكًا، فالقضايا حسب النظام العالمي الجديد قابلة للالتهاب الوطني والقومي.

تهمس في أذني، أهمس في أذنيها، أؤثثها في عقلي..وأنا أتلمس التفاصيل الخادعة، وأنظر كيف تختفي الحقيقة، بالمراوغة الصامتة، وأنتظر..هكذا تحدث عنها كما يتحدث وتر خائف على كمانه..

لقد ذهب لمقابلتهم بعد أن حاولوا الاعتداء عليه، كما في مرة سابقة، بدأ يفكر في كيفية مواجهة هؤلاء، معتقدًا أن منع الشر أفضله، ولكي يطمئن إلى أن لا تتطور الأمور أكثر.

- من الممكن أن يخدعوا الناس بعض الوقت لكن لن يستطيعوا خداعهم إلى ما لا نهاية.

- لا أريد أن أتذكر ما حدث سابقًا، فاجترار الذكريات أحيانًا يزيد الألم ويحرك المواجع.

.. ..

ينتابه القرف بسبب الألم النفسي الذي يتملكه.. يحمل كيس همومه، بعد أن أصبح وبيته قطعة واحدة، ينظر إلى ما يحدث، كل شيء سهل ومباح لمن يدفع أكثر.. تزداد خشيته من فقدان الصبر، قبل أن يصحو مما هو فيه..فالكثير من الأمور لا تعجبه.. إنه لا يستطيع أن يعيش.. ما يشعر به، تلفه الساعات.. تعتصره بقوة..يضربه إحساس مختلف، ولكنه متعب، وكأن عاصفة الوجع تضربه، كما الجميع.

- ألهذا ترصدني، وتراقبني..!؟
- لهذا ولغير هذا أيضًا.
- يفضل أن ننتظر بعض الشيء.
- انظر إلى نفسك ولو للحظة.

.. ..

..اللحظات مسروقة من شرعية القدر.. يرى كل من يصادفه عيونا تشتبه في أمره، يقاوم رغبة جارفة للبكاء كوجه مطلوب يرقص على حافة الفاجعة، لنفوس سكنتها الحيرة والذهول.

القلب يقطر ألمًا...

يمد الليل رداءه القاتل.. يزداد الألم الذي ما زال يراوده، يتناثر الإعياء.. فبعد عشرين وجعًا من عمر ذاكرته، صارت الأيام تقف على حافة جرح ميلاده في الوقت الذي لم يجد فيه مكانًا أحسن من قلب أمه يختبئ فيه.

.. ..

...عادت به ذاكرته إلى الوراء...

ها هي تقف أمامه.. تذكرها.. تحركت تلافيف عقله، لقد جاء الموت على غفلة، واختطفها منه دون سابق إنذار، وبالتالي عرف، وكذلك الأسرة والبلدة قيمتها، الإنسان يحب بسرعة ويكره بسرعة، لكنه لا يعرف قيمة من يحبه، إلا عندما يفتقده، لهذا فإن الإنسان أكبر نعمة زرعها الخالق في هذا الكون..!!

.. ..

ينظـر إلى العالـم الخارجي..فمـا يعتمل فيه حكايـا متباينة. يفكر فيما يحدث من متغيرات كثيرة.

نحن لا نريد أن نترك كل شيء في عاداتنا ، المهم عدم ترك الشيء الحسـن، وتزاوج ذلك مع الحياة العصرية التي تجري من حولنا بسـرعة شـيء جميل، يشـعرك بأن الدنيا مليئة بالمشـاكل، وتراكمها يترك أثرًا كبيرًا في النفس لهذا لا بد من تنازل طرف للآخر.

لقد انقضوا عليه كالذئاب الجائعة.

أسـقط في يده، وبات لا يسـتطيع سـوى أن يصمد أكثر، ورغم أنه كان يعـرف أنهم سـيجيئون إليه بالكارثة إلا أنـه لم يعير الأمر كثير اهتمام..لقـد كان الضـرب مبرحًـا.. ، شـكّلت الكرابيـج المملحـة رموزها الخالصة على جسـده، ورغم خلافها البسـيط معه في الكثير من الأحيان، إلا أنها وقفت صارخة في وجوههم بقوة فكان ما كان..

..تتقـدم منـه تراتيل حـب هامسـته..يتمدد على الرمـل.. وجهها الذي يرسـم تاريـخ الأرض يدفعها كـي تداوي خوفها بالصلاة.. أم بسـيطة، مرهفة المشـاعر تبحـث عن دموعهـا والطبيعة المحيطـة تنظر إليها، وهي تصغي إلى الله...

.. ..

الصـدى يغـرق فـي الصمت ويضـع بصمتـه علـى الجـدران والأزقة العارية..شـعاع غامض حزين، يقع ضحيـة الصمت الواقع على الجدران المتهالكة فيتساقط غضبًا ويصمت:

- لأن هنـاك فروقـات بين الأسـر والناس ووجهات نظـر القائمين على الأمر لا بد من الصراع.

- ولكن الحكمة واعتماد العقل من الضرورة بمكان.

- كيـف تسـكت عمـا فعلـوه معكم، !؟ يجـب معاقبتهـم على هذا السلوك الشائن

- لن نسكت على ذلك نحن فقط في أول الشوط.

.. ..

... أزاحت الأشجار خمارها الليلي، فقام مرفرفًا ليأتي بحرارة الماء من النهر.. إمرأة عفوية فاتنة الجمال ..ممتلئة بالبساطة العذبة، وقوافل القادمين تسرح في وطن كل شيء فيه صامت حتى القاع..جماله يتجمع في أسى طاغ..تقف قرب دكة سيدها السابق محدقة، وهو يستريح في ظلال الله الخصبة، وصوت قادم من بعيد، يعض وجنتيها ويمضي ليغفو على أهدابها.

- حب الوطن منذ الخلق الأول، بكل الألوان، أما حب الشريك فلن يكون إلا بلون واحد...

- أجل فالحياة لا تقتصر على الأبيض والأسود، بل هناك الرمادي وغيره أيضًا..

- ما يؤلمني هؤلاء الذين يبدلون ألوانهم ويطبعون جلودهم بذباب الكلام..

.. ..

..تتقدم ثورة غضب مفاجئ...

تعانق أحلامًا محطمة ترقد في أعماق الروح، كما الشموس الغارقة في البحر..عجوز يقف ملتمسًا للصدقات، بعض الأمل، والكثير من الألم يعتملان في عينيه، تدفعانه دفعًا، لاختيار ما يناسب حياته البسيطة، فكل شيء يبدأ من الواقع، وواقعه حالة خواء مريعة- فقد زوجته، وأبنائه، وبات بلا حاضنة.

- حياتي عذاب في عذاب ..لم أكن سعيدًا في يوم من الأيام.

- ولكن لماذا يا عم..؟!

...لقد كنت من أبرز الرياضيين في هذا البلد ...

لكن بعد أن كبرت، وهدني المرض كما ترى..لم أجد سوى أن أمدّ يدي بصمت..، المرارة تختفي، ولكن لا بد من فعل ذلك كما أنني أحببتها بقوة رغم ذلك القطاع المتقدم من العمر..لقد كنت قيسًا، وهي ليلي..

إنها حبيبتي التي لم أغفر لها عندما عضني هواها..لكنها غفرت لي.. وعندما كنت أحاول أن أصادر منها الكلام ، وأرسله إلى لغة الجسد كانت الروح هي التي تنتصر دائمًا.

- كلام النساء للرجال متعة ، أما كلام الرجال للنساء ، فهو حلم جميل، حتى لو طلعت عليه الشتائم.

- أعرف ما تشعر به ، فلو كانت الخيل نساء لكانت الأولى في السباق، تجاه القلوب الراغبة المتفتحة.

.. ..

..يبحث عن دموعه الأولى وعشقه المخملي القديم..يتنهد ..فلقد أحضر لها ما لم تحلم به.. كانت المرة الأولى.. التي يشعر فيها بالسعادة الحقيقية أتعرف لماذا؟ لأن موقفها في ذلك اللقاء الأخير أشعره أنه من الممكن أن يعيشا معًا ، وفي بيت واحد ، ولأنها حملت بعضًا من سماته ، زادت محبتها عنده ، لأن الحب هو الأساس، وهو وحده الذي يُغير الإنسان . يعانق موجها أفقه.. فيمنح وجهها روحه بعض الفرح...

..النجوم تحاكي النجوم..

الطبيعة تصغي إلى الله..

ينزل معها لتناول العشاء ، وهو يركب موجتها الأخيرة ، ويثرثر...

.. ..

يسحب نفسًا موجعًا..يرصف كلماته ثم يرشفها كلمة كلمة.. ويواصل.. ها أنت ترى يا بني أن حياتي كلها عذاب ومشاكل ليس لها أول من آخر ، ورغم أن الحب شيء جميل ومقدس.. إلا أنها تركتني إلى أين !؟ لا أدري..

بالضبط كما تركتني بلادي ، كما ترى..يستمع إليه..يتألم لعذابه ، وعدم الاهتمام به من قبل هؤلاء الذين يمارسون لعب الكريكت ، واللذة التي تسرق على عجل خلف الأبواب ، عندما تستيقظ أنوثة النساء المخنوقة دون وجل..

..كثيرة هي الأمور التي يعيشها الإنسان.

وعندما ينخره المستحيل الذي يصبح خلاف واختلاف يعكس عمق أزمته النفسية..أحداث ألقت بظلالها على الماضي، والحاضر، ووجه البشر جعلته يوقن، أنهم ما زالوا يجهلون قسوة الحياة .

إذن لماذا لا يبدأ من جديد.

حتى ولو للمرة الألف..، وينسى الماضي بكل ماله، وما عليه، يفكر أن لا يعد نفسه بشيء قبل ترتيب الأمور بشكل جيد، فلربما يفشل هذه المرة أيضا، هذا القلق المفزع الذي يشده من ياقته، جعله يظل سائرًا مع خياله صوب أسرة هادئة، عبره يرسل بلسمُه لصدمات الأهل، وإبراز لدورة الأشياء من أجل التنصل من الوجع الذي يكبل الذقون، والأطراف ومن أجل همسات الليل والأنباء، والأشياء التي تطلق توقها للضياء، فتتلقفها الأم سعيدة فرحة.

- يا بني، صحيح أنني ضلع منك لكن كلك مني
- لا أريد لك العذاب، كما وأني لا أود أن أورث أبنائي مرارة الأيام.
- أريد أن تظل سيد نفسك.
- وأريد أن أراك طليقة هواك.

.. ..

..تغيب الحقيقة، ويبقى الهوى..

الحقيقة تنسى لكنها تظل ثابتة، كما الحب لا يمكن تجاوزها، أو كأم فقدت ابنها، لكنها ضمته إلى صدرها من جديد..يلتف حول نفسه يشير بإصبعه للبعيد. في حواره مع السكوت العميق، يمتلك الكثير من السعادة التي تتخطى كل ما يعتقد أنه باهت.

.. ..

..أقسم أن الشمس تشرق في اليوم ألف مرة ..

فكثيرة هي الأمور التي يعيشها الإنسان بالحزن، والألم..

وعندما يغرق في عينيها يعرف كيف يكون المستحيل..، فيضان كوني يشكل سفر رؤيا جديدة للعالم..يكتب عبر النار لحن الجوع، بذائقة متطورة..

يرسم كلمة السر والعلن خريطة للوطن، ويعلق على صدره نجمة تزهو على الأنجم تحسدها الكواكب، وردة تسبح فوق سياج الدم اللاهث، وهو يسير في طريقه لدمه، وردة صار لها الإعصار بحرًا وشوقًا، وأخرى مخالبها أشعلت الحديد.

..امرأة ليس لها سوى مواقف علاقتها القوية بالمدير، حفاظًا على أسراره، ،وكتمانها لها..يطفو ماء الإثم على وجهه وجلده، يحاوره العطش الذكوري طويلاً، حيث لم يمارس الإرتواء منذ مدة، قلبه معلق بين العشق والفسق..إنه يعرف كيف تتحدث عيناها، فهو يعرف الذين يتحدثون بعيونهم، وهي من هذا النوع من النساء كما أنه يعتقد أنه لم يخطئ الظن.. في ظنه تتداخل المواقف والرؤى...

ينظر إليه شذرًا..دون أن تسعفه الكلمات، لكن ملامحه الذائبة من التعب والجوع تطلق صفيرها في التجمع الصغير المحيط به.

- غياب الأسباب يؤدي إلى نتائج معقدة وغير محمودة.
- كلما زاد الفقر وغابت الكرامة أو ديست زادت الهوة بين الناس.
- لا أحد يعرف ما يخبئ له المستقبل وكيف يكون؟!
- لا تنظر إلى النصف الفارغ من الكأس فهناك نصف ممتلئ.

.. ..

.. هنا حالة مغايرة..

تلتف حولها..تنطلق حازمة صارمة..

تتجلد أمامها..وتحاول أن تخطو بنفسك..

تتساءل إلى أي مدى يظل هذا الهوس..هما أختان، إحداهما ذاهبة إلى الموت وأخرى مقبلة على الحياة، وبأية طريقة حتى ولو بعرض الجسد ..بعد أن أصبحت نجمة في السماء، تقصدت أن تغرس جرحًا في نفسي، يقتلني كل يوم، أو لربما هي ظروفها كما يقول بعض معارفها، لقد دفعها الجوع لتظل حبيسة مخدعه..

من هم تحت لوائه يعرفون ذلك..

..يثرثون..لكنهم يصمتون فجأة كلما نظر في وجوههم، فهو يضيق

كثيـرًا بمـن يحاول نبـش أخطائه. تلـف "سـيدي بوزيـد" أردانها حول خاصرتها..تلقـم نهدها لفم الظلام، والحلم الطائش، سـاعة الهذيان، وسر التفاحة الأولى.

رجـل منفـي مـن الداخل يعانـق "راسـبوتين" وأولئـك المتعاقدون مع الخوف لا يملكون سوى النظر والثرثرة..

.. ..

الانتظـار المعذب..يسـير بطيئًا في الطريق الترابي، السـاعات تأتي بـرذاذ موجـات مفصلـة مـن دماء، يطلـق شـفتيه على أبراج اسـتطالت قامتها، يرشف صمتها الذي يقف على قدميه ويطلق لسانه فجأة.

- الفراشة المندلقة حول ضوئها تنوء من ثقل الضوء فما بالك لو كان ضوء رجل مطفأ..".

- فـي هـذه الحال، سـتنوء بما يحتمـل وما لا يحتمل ولكـن ما الذي يجبرها لذلك الفعل..!؟

- إنه الجوع الكافر الذي يدفع لقتل الكرامة..

- ولكن لماذا يفعل هذا الرجل ذلك، إنه يغرق في كل العيون..أليس هذا كافيًا..ألا يراجع نفسه!؟

- ما يؤلمني ما أراه.. لقد أدمنت ذلك، لذا صارت رغبتي في أن ينام رأسي فقط..

.. ..

..أسمع صدى صوتي..

أحـس بأنـي أتقارب فأمـد عيني في قسـماته، وهو يسـكب مرمر غيمـة على صحـراء الغياب، يحاول أن يقطنها، يمـد باب المدى لغزًا، يتفكك في صدفة مرمية على شاطئ البحر.

الفتنة نعاس يستيقظ بكثافة، يتبوأ نداء الرغبة، وصهيلها الجموح، فيحلم بقطف برتقالة القمر، وهو يرى بعض الكائنات البدائية، ، وهي تغتسـل علـى حافة النهر، هنا ثلج وصهيل عـواء مملح تنطلق به الدقائق ومـرآة مربعـة معلقة على جدار قديـم ليس ببعيد مشـروع حياة تتكون

مربوطة بأوتار الليل، ومحاصرة بأحابيل الطغمة.

.. ..

...يذهب إلى البحر لم يجده..

يفتش عنه في جيوب البسطاء..الذين يرسلون إليه همومهم كل يوم، آملين أن يأخذهم إلى مكان بعيد، يجدون فيه ما يحلمون به.. الشبابيك معلقة على صقيع القلب.. والريح في الخارج تحوم على فصول تبدل أحلامها، دون أن تتبدل.

.. ..

..الرمال المتربة تقطع المسافة

مهرولة تجاه أقدامه، تتسلل إليه عبر نافذته..يستحضرها، فيرى كيف تطوقه عيناها، رغم حشرجات الليل، الناس يحملون على أكتافهم حقول أبائهم وجنون قيظ المكان، يشاهد ذلك فيتوه فيها مع تفاصيله الصغيرة.

يتفرس صمتها..فتقطف ورد الندى...ثم تنحني لاطراقة رشقات النسيم..

.. ..

...جنون المدى..يحاور ذلك.

"تتشكل خيوط الضوء على ثغر المكان.

وفتيات بعمر الورد حالمات بالقريب البعيد.. يسكبن ماء الحياء على الشارع الترابي الطويل، وزواياه الحائرة..عيون تقطف اللوعة.. ضجيج لألم وحشي يعوي في حظائر النساء..وأنا أود أن أعالج مشاكل أهلي وفقرهم بعملي لا بكبدي ورئتي نقف معًا...

كل منا يجر ماضيه وراءه مثل ثعالب الصيد، أو مثلما تجر كلاب الأسكيمو زلاجة تحت عاصفة ثلجية ..فيصبح كل ذلك غرضًا كافيًا للحب.

.. ..

أنظر إلى ما يحدث أمامي..

مثقل أبحث عن فضولي..

الحلم بقايا امراة من الطوفان..أ عيد كائناتي إلى كائناتي وأنا أعبر عيونهن بجغرافية خاصة ، ارسمهن على الورق..تملأني شهوة مثلى، أتلظى، أرشف قهوتي، يصلني صوتها دون هاتف.. وجع صوتها هو ذاته الذي كانت تعلمني جدتي إياه في حكاياها على المصطبة..

.. ..

يطلب منه الاشتعال كلما خدره الاحتراق..

حط عليها الوحل ..فراحت تراقب بقعًا ضوئية ترُصّع السماء..بكت شمس وأخذتها بحة قديمة..هي بيضاء حنطية لكن الليل سودها بجناحيه..صامت ينهش لحم الذرة المشوية..

أتسلح بحكايات محايدة..تحكي كيف يزهر البرقوق، والحياة تحف في كف رجل اختارته وليفًا بعد أن اكتشف أنه أصغر من نقطة على سطر في قاموس حلمها..

.. ..

صحوت من حلم جميل..

وجدت صورتي تملأ الصحف والأمكنة ، ،والبوليس يبحث عني، كنت أقف أنا وهي، وجدران صمتي أمام الباب محدقًا في الفضاء، ظلت الصور ملونة غابت على الجدران..أحاول أن ألملمها تحت أبطي..، تهرب مني ثم تقف مع الحلم الغائب

.. ..

ينتصب على حافة جرح ميلاده..

لم يجد له مكانا أحسن من قلبي يختبئ فيه..

بعد عشرين وجعا من عمر ذاكرتي صارت الأيام تسير على قدم عرجاء.. قصائد للنار والورد صارت ..وغرانيق البلاد يغتصبون أحلامي البكر.. لقد حطموا أجمل لوحات طفولتي.

البطولة التي ظلت تنتظر الخبز اليابس لربع قرن..فغصبت النجمات وهي تبتسم ل "عوليسه" يومها بكت "قرطاج" وجع أبنائها الذين تحبهم

، حتى القمر كان ينظر مدهوشًا بلا مبالاة ودون أن يفعل شيئًا.

سألته يومها أن ينقل إليهم وباء التمرد ، وينشره..وعندما حاول ذلك أطفأوا عينيه، وحرقوا لسانه، فصارت كل الأماكن سواء للأعمي.

- الحق لا يوزع نفسه بل يعلنه من يتمسكون به.

- كذلك هي الكبرياء، والكرامة إنها الطبيعة الخلقية للإنسان.

- لم أجد أحدًا مثلك يتحمل الكثير وربما يخسر الكثير.

- أنا لا أخسر سوى قرفي وفقري. لكني أريد أن أحرق باب الحزن، وأضرب الناقوس.

- في نفسك كرب وضيق فأنت الزمن الذي يلتف حولك كل هذا الضوء.

.. ..

.. لقد اختلطت عليه الأضواء

تداخلت الأمور فبات مقتنعًا بأن إصراره لا يجعله يظلم نفسه فلقد وضع قدمه في هذا الملف منذ أن تغلغلت شوارعها في أعماقه لقد وجد بونًا كبيرًا بين الصورة والفكرة فما يشاهده ويراه، قد لا يشعر به غيره خاصة هؤلاء الذين يقبعون في بروجهم العاجية لذا عانق الكلمات وعاندها محاولا فك طلاسم اللحظات، والانتقال بها إلى ابتسامات النجوم.

لكنه غرس في عيون أيامه رغم فقره المدقع عيون الياسمين. وصارت الكلمات ترسل سواحله إلى عينيها ، تصفع بها ذئبية هذا العالم، وبعد أن عرف أن الحقيقة أثقل على النفس أحيانًا ، إلا أنه لا بد منها ، خاصة وأنه دون خرائط، أو بوصلة لذا صار يراوح بين خط الاستواء وجليد الشمال..ويلتقط بعض أسئلة يحاول أن يجد إجابة لها ، دون أن يجد ذلك في الكثير من الأحيان.

- الحق وإن طال غيابه لا يضيع ولا تغيب حقيقته وأنا هنا لا أظلم نفسي، سنوات ألوانها سيئة وأنا الآن لست غاضبًا

- لقد كثرت حكايا النصب والاحتيال، ولا من أراد أن يكشفها ،

لذلك كثر الضحايا بين الناس.

- هؤلاء يمارسون الكذب على الغير.. لقد تعودوا على ذلك لأنه يريحهم ورغم أن الحقيقة هي الأفضل والأجدى إلا أنها بالنسبة لأمثالهم مرة..

.. ..

..لقد ذهب الرجال والناس الذين لم يبق منهم سوى بعض رائحة يضج بها المكان حيث يحلم الإنسان دائمًا بما ليس في ملكه أو قدرته.. تسقط قطرة غيم على وجه الفيض اللاهب..وعندما يؤذن لها بشكل هش أن تجعل من الكلمات ميدانًا يكون صوتها أقوى بكثير من كل شيء في العالم.

- مكاني هنا لا يمكن لي أن أبتعد عن أهلي ومجتمعي أكثر من ذلك قمة التحدي أن تبتسم وفي عينيك ألف دمعة.

- أنا مشتاق لقطف قصفه فرح.. ها أنذا أنتظر ذلك كما اشتاق لهلال العيد

- الأسيجة الكثيفة والعذابات المتراكمة تخلق جيرانًا جيدين.. فالهم واحد.

- من لا يخشى الحقيقة، لا يمنع العالم من أن يراها.

.. ..

.. نبتسم لبعضنا البعض.. يود لو ظل معها..يرى الأرض تتكلم لغة البسطاء لأول مرة ، وكيف غاب الذين سرقوها ، وقتلوها كثيرًا..ها هي تقف شامخة تقول كلمتها بقوة الزلزال..تكتب مجدها ، ومجد ناسها الحقيقي..هكذا قال الطيف وهو يبتسم قبل أن يغيب في هالات النور.

٣

.. ..

..هموم متراكمة تمتلئ بها بيوت متهالكة.

يستحضر الأرض العفية، ليستخرج قطع النجوم المدفونة في جوفها منذ بداية التكوين الأول..

يرتب جسده ومضة .. ومضة، بعد أن يتأكد أن الأحلام التي لم تتحقق هي التي يعرفها.. فيد الزمن أكثر مهارة.. إنها تدقق في كل شيء لأنها تعرف كل شيء .. إنها تشبهه، ويشبهها، فهي له كله، هذا ما ظل يشعر به، لهذا ظل يدخل زهرة لا تنام.. ويقدم الصبر لمن هو في بيت الآباء والأجداد.

أغاني روحه تضيء عتمة المدينة..

ضوء الشمس أمل ربما يأتي ليطرق أبواب أرواحهم، دون استئذان تذكر كيف ذبلت أوراقها، واستسلمت لأحزانها في ذلك اليوم، فقتلت وحدتها، وأضاءت نفسها بالعديد من المواثيق الروحية الشفيفة الواصلة بين روحيهما.

إنها تسافر على أجنحة الحضور الواعد لصفاء الروح والوجدان، فتعرف إنه عندما يتم اللقاء يصبح للمياه لون وطعم آخر.

- ما حدث واقع لا راد له، وما يحدث علاقة محرمة بين الحاكم والناس، لأن هناك الكثير ممن يمشون على الشوك.

- كما أن هناك من لا يشعرون بوخزة ضمير لهذا لا بد من الفعل.

- المهم أن تنتهي حالة الرتابة المقيتة.

- وهل تعتقد أن حياة الوهم مناسبة لك، ولنا.

- ليس هكذا، بل وجوب ضرورة تخفيف الوهم، ليصبح حقيقة.

.. ..

.. دموع "سيدي بوزيد" الساخنة تبكي غدر الزمان ..

ينظر إليها ، فيشعر ، وكأنه يجلس على شاطئ بحر هائج ، تتصادم فيه الأمواج ، وهو غارق بينها ، تلطمه موجة وترده أخرى ، دافعة إياه إلى مكان جديد مختلف ، فتهمس لها النجوم ، وهي تطلق وهمًا يرقص تحت ضوء القمر.

"موجات" تسونامية" عنيفة لا تتكرر إلا مرة واحدة ، ولا تجعل البطن خاويًا فقط ، بل وتقلق الناس أيضًا ..تنضم التفاصيل إلى التفاصيل.. الشيطان داخل المذياع..

إنه كما هو دائمًا في المقدمة ، يعد بالخبز الذي لم يتحقق أحيانًا ، وأخرى بالثبور وعظائم الأمور لمن يطلبه..يصفق أفراد الجوقة ، يطبلون ، ويزمرون ، لقد استمرأوا ذلك ، فالسيد سيلقي لهم بعض فتاته..إنهم أمراء دون مال ، أو حشمة..الكرسي هو الأهم بالنسبة لهم ، أكثر بكثير من تحقيق أحلام الناس المحكومين بأقانيم الإيمان ، الإرادة ، والأمنيات. نجومية لها عنوان واحد وثابت ، يعم كل الأرض المركز الرئيس والدائم. الالتزام به ذاكرة ، يريد الحاكم إلغاءها ، حتى يلذ له طعامه وشرابه ، ويصبح في مزاج حسن..

.. ..

أنظر إلى ما يدور حولي بعقلي..لأكتشف عالمي الخاص ، وكذلك عالمه ، وهو ما لا يمكن توفره في الأيام العادية..شيء يتسلل منه في ومضة عين ، يقدم هواه بليل الحطام ، على ركام الكلمات التي تمط فوق همسات الليل حيزومها.

- إنها مدينتي التي أريد أن أعيش فيها كل ذكرياتي ، وباقي حياتي.

- لا تخافي ، سيكون كل شيء كما تهوين ، وترغبين يا أمي. فلربما تتغير الظروف . انتظري فقط بعض الشيء.

- هذا أكيد فلن يبقى كل شيء على حاله ، لأن دوام الحال من المحال ، كما أن لكل حسبة ثمن.

- لكن أنا لم ولن أتغير..

- هذا يعني أنك قدمت نفسك بشكل صحيح.

- هكذا هي الأمومة إنها مستودع الأسرار الخاصة، والعامة إنها حاضنة الوطن.

.. ..

..دارت الأمور دورتها، صار اعتقاده بها أكبر مع أنه يعرف أن الناس في الكثير من الأحيان يخافون من دورة الأيام، تغير الكثير لكن الأمر بقي كما هو، ليس من استراحة في الطريق الطويل.

"السواد القاتم هو الذي يسيطر على حياة العائلة.. عمله الهامشي المتقطع، لا يفي بحاجة الأسرة البسيطة، رغم قلة احتياجاتها، ما يعني أن حياتها دون حياة، فالرفاة بالنسبة لها، بيت صغير، ووجبة عشاء فقيرة، وجملة من الأحلام، يعيشون لأجلها، يحققون فيها طموحاتهم..وهم يشربون خطابات تعود عليها الجميع.."

كتلة بشرية صامتة عزوفة عن كل شيء...

حتى التغيير الذي ترنو إليه وتريده، لا تستطيع إعلانه أو التعبير عنه.

.. ..

تقدمت منه كقطاه هاربة...

تقفز ثم تنتظر، وتقفز مرة أخرى من جديد، فهي لا تثق بأحد من الرجال، لا تثق بأحد مطلقًا، ربما هذا هو السبب في رفضها لكل من يحاول التعرف عليها..لقد أصبحت حياتها كابوسًا، بسبب ما تراه ويحدث..

فما هو السر الذي تحمله، وما هو البعد الآخر الذي تنتظره..!؟

.. ..

لقد ظلت تخاف من الحياة، لكنها عندما عرفت أهميتها، وكيف صار يلعب بها، منذ ذلك الوقت تغير موقفها تمامًا.

- ماذا تريدين..!؟

- أريد أن أتحدث معك بضع كلمات. فأنا أبحث عن عمل..لعلك

ترشدني.

- تفضلي سأساعدك.

- يجب أن لا تفكر أنني من هؤلاء اللواتي يلقين بأنفسهن للتهلكة.

.. ..

.. هو رجل له موقفه المتقدم..

يحب لعب الورق، وقراءة أبواب التعارف في المجلات لهذا يبحث فيها دائمًا عن الراغبات في الزواج.. تفرحه النساء والتوقيعات الحالمة وكيفية إلقاء شباكه لاصطياد العزباوات.

لقد دفعها فقرها المدقع لتصبح سكرتيرته ذات الحظوة المتقدمة لديه، فهي سيدة ولا كل النساء، أنيقة، رشيقة، شهاداتها العلمية المتقدمة، تتمثل في جمالها الآخاذ، رغبة المسئول، ورضاه عنها، التي ومنذ أن صارت مديرة مكتبه بات يراها أكثر جمالاً..

لقد شعر بأنه يحبها منذ ابتداء فجر العمل، وأنها هي المرأة التي يريدها، وينتظرها، حديثها، شكلها، منطقها..إنها تختلف بكليتها عن شريكته التي لا تفهم من الحياة الزوجية سوى إنتاج الأطفال، وخدمة زوجها فقط، في الوقت الذي يريد فيه امرأة، وليست أم أطفال.

هذا ما يشعر به، ويثيره..لذلك يريدها، ولا يستطيع أن يعيش بدونها، ولو للحظة واحدة..أنه يود أن تكون له وحده، ولقد باتت تعرف ذلك، وهو أيضا.

.. ..

كانت نظراته تحكي العديد من القصص، كل الأيام تسعى لكي تكون شاهدًا على ما يحدث، اللحظات تتداخل ساخنة بين مساحات الصدق، والكذب، صرخاتها تملأ الكون.

تكورت في حضنه كقطة سياميّة أليفة، لا يسمع سوى أنفاسه.. نزع ورقة التوت النجومية التي حملتها على كاهلها لمدة طويلة، بعد أن سرقته عناوين النجاح والشهرة كثيرًا..حيث ظلت المفاخذة حالة

أسبوعية يمارسانها، ولكي يؤكد انتصاراته عبر السرير، وأيضا حرصه الزائف على العمل صار يضع توقيعه أثناء قمة نشوته عبر كأس من الشمبانيا وأحيانًا من النبيذ المعتق.

رجل يعتقد أنه يجيد فهم نفسه...

رغم أنه لا يجيد فهم الناس، وآخر وزع سعادته على الجميع، وأبقى الأحزان له وحده، في كل مرة تحس بأنه يدهشك لما يحمله من وداعة، وطهر وعشق للشموس والنجمات التي تبتسم، وثالث له قلبان، قلب يغرق والثاني ينزف..

إنها أكثر جمالاً..شعرت أنه يحبها منذ أول مرة أطلق فيها هذه الكلمة، وأنه هو الرجل الذي تنتظره، وتريده كما أن لا غنى له عنها، ،رجل له سطوته الناعمة. حديثه وسامته، لكنه معها ليس حرًا إنه غادر ومخادع، رغم موقعه المتقدم في العمل، ما جعلها تقتنع بأن كل الرجال دجالون، غشاشون، الكذب يجري في عروقهم، إنهم يحبون، ويكرهون. فلقد تخلى عنها بعد أن فتح الدردنيل فآمنت به، وحاربت كل العالم من أجله.

لقد رأت فيه كلب حقير، بعد أن أخذها للمتعة والتسلية، لقد تسنى له ذلك بعد أن غسل دماغها بكلامه المعسول، هكذا ظل هذا الكاذب الأكبر يقهر الناس، وإن كان يضعف عند أول سيدة، وبعد أن تصبح ملك يمينه يلفظها، ثم يبدأ البحث عن صيد جديد.

.. ..

امرأة تعشق النميمة..

تدفق نهرًا من الصراحة..مادة ثرية بإجابات حاذقة، صادقة، ولكنها شديدة الخصوصية، والخصوبة.

- لا تسمع ما يتعلق بالخصوبة، لا تتحدث عنها، ولا تنظر إليها، قال القدامي.

- الجمال هو القيمة الكلية الكبرى، عند الفرد، لكن الحق والحقيقة هي التي تهم المجموع.

- حتى العواطف عند البعض حسابات وأرقام، هذا لا يجوز أنه أمر لم يعد له ذلك الاعتبار في عالم اليوم.

- إذن، ليس أفضل من الانتظار.

.. ..

"تومّية"، وردة جورية يانعة، عفيفة، طاهرة، تميزها بالنسبة إليه، يعني الكثير الكثير، في داخلها طفل خفي يدغدغ أحاسيسها، هي كلها له، وتعتقد أنه بالنسبة لها كذلك، إنه النفس الذي تتنفسه، ولكي يكون اللقاء القادم بينهما حميميًا، وموحدًا ظلت المنافسة بينه وبين ذاته صعبة، والتحدي ليس محايدًا كذلك..إنه في حيرة من أمره. هو يريدها، ولكن ضيق ذات اليد، لا تساعد على ذلك..فاستمرار الحال من المحال، لقد شرح لها الأمر، طالبًا منها أن تنتظره، لقد آلمه تركه لها.

صارت تتساءل، لماذا حدث ذلك!؟

وما الذي يقصده، وكيف يريدها، وفي نفس الوقت لا يريدها.

إنها تهواه بقدر ما تحب حريتها الشخصية، وإنسانيتها، لكنه معها، يجب أن لا يكون حرًا!!

لذا جاءت إليه تسأله، هل يسافر أم يبقى.، وهل يتركها، وينتصر للظروف، إنها بحاجة لمعرفة ما يجري، فالعالم ضيق، وصغير، والوقت يجري بسرعة، والحقيقة هي التي تنتصر دائمًا.

- يجب أن تخبرني برأيك وموقفك كن حاسمًا، أنا لا أستطيع الانتظار أكثر من ذلك.

- لكني في حالة عدم توازن..لذلك فالتحدي بالنسبة إليك تنتابه بعض الصعوبات.

- ما العمل إذن...!؟

- التربص، الانتباه، ثم الانتظار..

- كثيرة هي المعلومات المغلوطة..وكثيرة هي المواقف، والمفاهيم الخاطئة...

والعديد من الناس يطلقون أحلامهم، لكنهم لا يستطيعون تحقيقها، هنا من يضحك لما حدث، وهناك من يضحك من القهر والغبن، وهو ليس بقدرته أن يحقق لها كل أحلامها.

لقد سألها أن ترى بعينيها وتشاهد، لذلك قذف بحمم قلبه اللاهبة، صوب كل الأشياء، فتناوشتها أفكار نقية كحبات المطر، بعد أن عصرت عينيها لحظة ابتعادها عنه، فانطلق في كلماته لتظلل حنجرتيهما معًا.

- يا لهذه المرأة الرائعة، إن تميزها يعني الكثير..الكثير.

- في داخل كل امرأة طفل خفي يدغدغ أحاسيسها.

- حبك لي، أما أنا فكلي لك وحدك. أريد أن أتنفس الهواء الذي تتنفسه، ليكون اللقاء حميميًا.

.. ..

..لقد أحبها رغم فقره..

.. أحبها بكل جوانحه، لم يستطع أن يثبت لها ذلك، سوى أن يقدم إليها ابتسامة فجرية، ووردة حمراء، مؤكدًا لها ما يحتمل تجاهها في قلبه..إنه يتمناها زوجة له. ولكن ما باليد حيلة..لا عمل.لا مال ..ولا شيء يذكر أيضًا.

..تذهب به الأفكار في كل الاتجاهات.

يتقدم منه الطيف فاردًا جناحيه، وكأنه يحاول أن يقيه من حرارة الهموم المتلاحقة، التي تتناوبه بين الحين، والحين..، يشكر الله في سره..وهو يرى الطيف يتقدم منه، كما كان يشكره دائمًا في العلن..

يذهب إلى حجرته ..يسرقه النوم الذي يحاول أن يسرق نفسه منه، لكنه لا يستطيع الابتعاد عنه.

لقد تذكر والدته التي كانت تعلم بناتها دائمًا، بأن أقسى ما يبهظ المرأة، هو غياب الكرامة، والأحبة، وإن الإنسان مهما كان غنيًا أو فقيرًا يظل بحاجة إلى بعض الفرح. ذلك الشيء الجميل الذي لم تمتلكه

أسرهم الصغيرة حتى الآن.

.. ..

ينظر إلى الجموع..

يتذكر فقره، وهواه.

لقد حلم بها كثيرًا، تحدى الموت من أجلها، لقد ظل يتمنى، ويحاول أن يحقق ما يتمناه، رغم الشقاء الذي لاقاه وسيلاقيه..يجب أن لا يظل الإنسان مقيدًا..وإلا سيظل يؤلمه ضميره، كونه لم يستطع تحقيق ما يروم، ويهوى حتى تلك اللحظة.

.. ..

أنظر إلى كل ما حولي.

يصيبني الدوار، وأنا ألمس صوتها في بدني رعشة تأخذني إلى مقامات الحلول، واللحظات من لحاظ عينيها تطير صوب شهوات أميرة، رشقت ماء الجداول على وجه البوادي. فكيف أفيض فيك، كي يأخذني الجنون، وأستكين.

..يستمر الدوار، وهنا يأتي ملكوت الرب الذي يشكل بداية التاريخ الجديد الذي لم نصله بعد، يأتي الحب الطفولي يسحبه إلى الماضي، حيث مرحلة الدراسة الثانوية.. الطلبة زرافات ووحدانا..البؤس لا يفرق بين كبير وصغير..الحب والماء، يتدفقان من الأرض الطيبة، لكنهما لا يصلان إلى البيوت، هكذا كان المحبون الصغار يقولون، والمحبون لا يكذبون.

.. ..

تمضغ بعضًا من حكايته تشرب كأسًا من فرح على الريق..تنام في البللور، فهي لم تحتمل سجنها تحت جلد الزجاج..فالكحل في عينيها تفسده المدينة، لذا تمشي حافية على حبل الهواء، لا تقيدها مسافات الصور..تغسل وجهها بماء البحر..ترضعك بقايا عافيتها...

ما زالت تقف بين عينيه، تحدق في وجهه، ورغم أن الوقت يسرقه بعد أن مال بين أضلاعها إليه، إلا أنها تفشل في استدراج النسيان..

..هدأ وسكن كدمعة صافية..فالجوع في أحيان كثيرة أقوى من الكبرياء..إنه الكفر بعينه، لهذا ظل صامدًا، فشل الفشل في ترويضه، ومثل بطن يتهيأ للولادة، تقف صورة فارس على جدار الغرفة، يمارس الفرحة على استحياء، وقطار سري يمر في شوارع التيه والضباب..

يمخر عباب الفضاء، ونظرات الناس السريعة، المتلاحقة..

.. ..

يستغرب من الحب الذي يأتي فجأة.. لقد كان حبًا طفوليًا، إلا أنه صار محيرًا، لقد أجبرته نفسه عليه، لأنه لم يحسب للخطوة التالية، وفقدان الحب، وإن المكان الذي يوجد فيه الجميع في مدينته سجن واحد، فخارج "سيدي بوزيد" كداخل جدرانها. بالنسبة لأمثاله.

هكذا هو حبه، إنه من أصعب وأعقد أنواع الحب.هو فقير، لكنه لا يملك غير المروءة التي علمته دائمًا أن من يحب لا يكره، بل ويتحمل كامل التبعات.

- أرجو أن تتفاعل معي بشكل إنساني، أعطني وقتي، وعندما تزداد ثقتك بي، عندها لن أرفضك.

- للمال دوره في تغيير المواقف ولي الأعناق.

- لكن مشاعري هي الأصدق من كل شيء، لقد كانت كذلك وما زالت.

.. ..

ما أجمل الأيام إن استطاع الإنسان اختيار أحلامه، هكذا أعلمه الطيف، إذ من الممكن خداع الإنسان بالكلام المعسول، حتى هؤلاء الذين يعتبرون إنهم قريبون منه، ولكن الحقيقة الساطعة هي الأقوى دائما..يغرق في حلمه..ينادي طيفه الذي يومئ إليه ببعض الإشارات، حتى يراه من جديد.

إنه يحمل معه جملة من النصائح، ستثنيه عن أفعال تغرق الرءوس والذقون في الطين، أفعال ظل يخشاها كل من هم حوله، أن هي

حدثت، لقد استوعب نصائح الطيف، واقتنع بأن الزمن هو الذي يحكم على النفس بالموت أو الحياة. فالإنسان جزء من الطبيعة وكل الأشياء. إنما هي على قيد الحياة، ولا أحد يستطيع محاسبة الآخر على مكنونات صدره، وعلى ما في نفسه، خاصة وإن ما في القلب قد يكون شيء آخر.

- ما بيننا أكبر من ورقة تكتب، ما بيننا هو الحب، لماذا إذن لا نتزوج فورًا.

- صحيح أن كل شخص حر التصرف في جسده، لكن الارتباط دون أجندة لا يجوز، ولا يعقل.

- هكذا كان القدامي يفعلون.

- نحن أبناء اليوم، ولا نستطيع تجاهل الواقع الذي نعيشه.

- لكن من يحبون بعضهم البعض يكسرون كل الحواجز، ويبقون على تواصلهم، هذا هو الحب الحقيقي.

- وهل هناك مثل هذا الحب!؟

- نعم هناك الكثير من الحالات لما نحن فيه.

.. ..

..هي تحبه وتريده..

يظهر ذلك في حديثها، ملامحها، وتفاصيل يومها أيضًا..

فظروفها غير ظروفه، لقد باتت ماض أشفق عليه، رغم أنه اعتبرها مستقبله القادم، لقد ظل هذا الشعور يلاحقه منذ أن تسلل حبها إلى صدره فصارت عطره الذي يتنفسه صباح مساء.. قليل من الحب يشفي قلب الإنسان، إنه يعرف ذلك، والجميع يؤمنون بهذا الذي يؤمن به، ودليل ذلك أنها باتت بالنسبة إليه الآمر الناهي، لقد صارت رغبته جامحة، في أن تشاركه مشاعره، فمنذ أن التقى بها، وهو على هذه الحال، إنه يعيش معها فوق السحاب، لأنه يؤمن بأن الإخلاص هو الباقي، وأن من يخون قلبه، سيتخلى بالضرورة عن هموم وطنه...

.. ..

..طلعة أخرى من الأمل، تفعم عقله ووجدانه، يرشفها بكليتها محاولاً أن ينتصر على تراجعه، إنه الصبر الذي يخترق كل الحواجز، ويدفع النرجس كي يرفرف على جبين النهر...

الطاعة العمياء، والغفلة شيء آخر..

وجعه المطرز عشقًا في هواها، يلعن السكوت، لأنه لا يقدر الأوجاع التي تركتها الحياة، وضيق ذات الحال في نفسه، لا أحد يقدر ما به، وما يعانيه، يودع مهمه النحل شوقه، ورغم أنه يتناسى خصوصية ما به، وما ذهب إليه في مهمته الحياتية، إلا أنه يقبع ضمن قلبه خجولاً، وإن كان يتمنى أن تظل الحلم الأجمل في حياته.

..إنه من هؤلاء الذين يشربون الصبر شربًا.

يحب الجميع، ويُحبه الجميع، كونه ينقش في نفوس البسطاء شظايا الأمل مقدرًا كيف تفعل فعلها، عند من يحبه، ومن لا يُحبه.

- أنت تعيش في عالم آخر، عالم خيالي بعيد جدًا، ليس كهذا المكان الذي نحن فيه عالم غير عالم "سيدي بو زيد".

- كثر هم الأعداء، والخوف من الظلم يبيح للناس التصرف.

الطيف يرفرف بجناحيه على المكان ..يستحضر ثرثرة التمدد الأول...لقد عرف كيف يتجاوز عن الحدود عندما يريدون شيئًا، أما إذا أراد الناس إنجاز ما يروق لهم، فالسدود والحدود هي الجواب، هذا ما ظل يشغل عقله، إنه القاسم المشترك بينه وبين الطيف، إنه تناقض موحش، لا يجوز بالمطلق.

.. صار يتساءل:

..لماذا لا تهتز مشاعرهم، وفيما إذا كانوا يعانون، ويشعرون بشعور الناس أم لا..!؟

لقد ظل هذا العذاب يأكله..فيتألم للحياة التي يقتلها الشر وظلم الإنسان لأخيه الإنسان..فيتألم أسفًا..

- رغم سطوتهم، هم جبناء، خوفهم يأكلهم من الداخل، مثل الداء، والسبب ظلمهم للناس، الذي زاد من عداوتهم لهم.

- لكنهم عندما تقلت الأمور من عقالها ، يتأسفون، وأن ذلك في آخر المطاف.

- الأسف لا يحل المشكلة.

- نحن أولى بمشاكلنا ، فلا فائدة منهم ، لأن من به شوق يمرضه.

- أعرف العذاب الذي أنت فيه كان من المفروض أن نتخذ القرار منذ زمن، لم نفعل ذلك، وهذا ليس ذنبنا ، إنه ذنب البيئة الاجتماعية التي شربت ثقافة التسلط.

.. ..

...تتكاثف اللحظات مع لحظاتها..

تضغط على عقله الذي عرف كيف كانت تنطفئ فيه كالرماد. كلما ارتمى لحم الناس على قماش الشوارع..يمر على الدهاليز السرية ، للشهوة والشهادة..نقيض ونقيضه، ثم ينزل تدريجيًا سلم القيم التي عاشها عمرًا ، وانتمى إليها.

.. ..

كنت أقف أمامه ..

أطلب ذاكرته..أعتصرها..وأنقشها في تلافيف عقلي..يؤلمه وجع الأم الصابرة ، والأخوات اللواتي يعانقن أسوار المنزل القديم كل يوم، لا عريس يتقدم لمن هن داخل البيت، ولا أمل بفأل حسن.

..كنت يا أمي تشككيني في نفسي..همست الفتاة لوالدتها خجلاً، قبل أن تستدير نحو أختها التي كان جوابها في غالب الأحيان صمتًا.

ظلت تنظر إلى جسمي، ونضوج صدري كشيء غريب، كأمانة أحمل ثقلها حتى يأتي أول طالب لتعطيه أمانته..

..طيور بيضاء تشكل جوقه تعزف لحن الهوى..

نجحت في تطويقه ، قبل أن يطوقها.. وهج من بين الغيوم يطل.. يلون الثياب ، ويلبسها عطورًا تطوي شعر الليالي بعد أن يرشقها بحنين هواه، ثم ينسحب.

..عيون مكابرة، تحدق في الوجوه..

الصمت يطبق على كل الأرجاء، وكثيرون هم الذين يحبون التحايل على الحقيقة، ما يؤكد أننا ننتمي إلى أوطان لا تلبس ذاكرتها إلا في المناسبات، وعبر نشرات الأخبار المميزة، وتخلعها عندما تنطفئ الأنوار، زعماؤنا مسجونون بالهزات النفسية، والانفعالات المتناقضة.

يدور الحديث دون كلام، فلغة العيون في الكثير من الأحيان تفي بالغرض..

- أريد أن أعيش أحلامي الخاصة، لذا أطرح الأسئلة التي لم يجب عليها أحد حتى الآن.

- لقد عاندتك الأقدار، وكأن السماء تعاقبك لذنب أجهله، ويجهله الجميع.

- لا كياسة أمام الحق، فهو أجدر بأن يحق وأنا لن أعجز عن اتخاذ القرار المناسب، في الوقت المناسب.

.. ..

يحاول تجاوز وجعه بامتصاص آخر قطرة من كأس الشاي.. ثقب في سقف ذهنه، يحدق في وجهه.. وهذا أمر مباح في مثل حاله، وهو لا زال يبحث عن بقايا عمر ربما يكون سعيدًا، كثيرًا يأمل بذلك، أنه يعرف كيف يحصل الإنسان على ما يحب إذا ما خانه الحظ أحيانًا، وفي الكثير من الأحيان تلاحقه التعاسة.

هذا ما حدث، وما كان.

لهذا ظل كمومياء متحركة، تحيط بها جملة من الظروف عديمة اللون والرائحة .. لقد ترك سوء الحظ وغدر الزمان وجعًا تعجز الجبال عن حمله..خانته الظروف، وتخلى عنه الجميع، عدا أمه، و"تومية" التي تشكل حلمه الطاغي اللذيذ.

صارت رغبته تراوح بينه وبين آمال عريضة، ربما تتحقق، وربما لا تتحقق، فمن المخطئ يا ترى؟ السلطة أم البسطاء من الناس أمثاله. السلطة مع المال قوة، والكرامة مع الفقر ضعف، ولا بد من الصدام.

عند ذلك يكون الصبر هو المنتصر.

.. ..

ينزف الجرح، يصبح بطعم الامتصاص أو اللفافة..

والفقراء هم الذين يجب أن يتحملوا، لأنهم وحدهم الذين يأتونها إذا نادى المنادى..

رؤيا جديدة تشكل مشروع حياة تتكون، أرجوحة مشدود بأحابيل الطفمة، لذا يحصن ذاته من جديد بما يهوى..فلقد دخلت الأحداث مشاعر الناس، لذلك يجب عدم فقدان الأمل في التصحيح من أجل البسطاء من الناس، وكذلك رغبات الأطفال.

- لقد لاحظت عليك الكثير من المعاناة منذ متى ذلك، ولماذا!؟

- أنا أتلظى بناري وعذابي، كل ما هو سيء منذ انفجار النجوم، وحتى شواطئ تونس، فلا تتركيني لوحدي.

.. ..

.. "سيدي بوزيد" مدينة حالمة، لكنها تتألم وهي تمشط شعرها بالوميض.

..أنياب حادة تنغرز في اللحم البشري..رائحة الشواء، تستحضر أنياب "دراكيولا" وتنظر في عين "نيرون" وهو يراقص "يوبايا"..كلاب في العقل تنبح، ولا يستطيع لجامها، عكس ما يراد لها.

تدنو المسافات من الضوء نحو الأفق، "سلطعونات" الماء تحدق في الوجوه مخدرة، ثم تتهاوى في السقوط وهي تغرق بين الأمواج شيئًا فشيئًا..الأم واحة طافحة بالخضرة، والصبر، والماء الزلال، الذي يحتمي بالصخور..

أعشاب الأرض الطيبة في حالة من النشوة، تلامس حتمية اللقاء، إنه يعرف أنه ليس الأول ولا العاشر الذي يعتصره موقف كهذا.

- لا أدري كيف، وماذا أفعل!؟ فكلما أقدم أوراقي ينالني بعض الألم، لكنه ينتهي بعد ذلك!؟

- انتظر..واصبر.

- لقد صبرت كثيرًا.. بدأت أعتقد أنكم تهملون الأمور، أنتم السبب فيما يحدث.

- اسكت يا حمار.

.. ..

..يتدفق أحدهم بسخرية لاذعة، البيوت آيلة للسقوط، وهو يناجي أرضه المستباحة والأجساد المنهكة..يعصر جسد الغيم، يستحضر النعناع، الذي يفشي له كامل الأسرار.

.. يقف الشوق المتدثر بكل الأساطير عبر الشارع.

..نظراته الصارمة تبتسم في وجه "عوليسه" وهي تطبع مدينتها راسمة إياها على جلد ثور آبق، والورد المقهور أطفال رائلون يتفرسون وجوه المماليك، بايات تونس، وظلم ذوي القربى، كلما نادى المنادي، أو ولد الليل الكلام.

- في زمن النهب المؤدلج، وشرعة اللصوصية هل الوطن فكرة في الذهن أم هو مكان على الأرض فماذا نقول لوطن يهينك بنية صادقة مؤكدًا أنه يحتفى بك!؟.

- لا أريد الماضي، أريد المستقبل فأنا أرى ضوءًا عن بعد، لا بد أن أذهب إليه.

.. ..

الأشياء تخرج على قوانينها، تلهو بالنظر إلى النجوم..أسئلة شيطانية تفتل شواربها، والأرق يقارع الانتظار. يحاول أن يكرر محاولاته، فتصده ذاكرة خصبة ..، الليلك يتأبط النفوس، والشوارع.

يلثم انتشار الضوء، وهي تطل بين الأصابع النارية..تستقرئ الجراح، وترسم اشتياقها على شارع رصيفاه جوع وعوز.. ينتج الخصب في الليالي الملاح، عندما تعوي طواحين الهواء..

..تلاحقه الهواجس.. يفتح بوابات الطيبة.. يضعها في قمقم قلبه، والمواسم حالمة، بالفراشات الملونة، وسنابل القمح تتبتل في عيون البسطاء من الناس..أرض السكينة فيها ساجدة، مفعمة بحب الله.

.. ..

..على إصبعيه يلف أحزمة الضوء..ويبتسم للعشاق، تطلق الشوارع زمهريها، وصهدها، في البيت زلازل من الجوع، تحاصر بكارة التدقق، وعلى سواحل الروح انفجار للأحلام الندية، وهو يبحث عن نبض الأرض، في نبضه الممزوج، بهول الفزع من نار الجنون، يعطرها رحيق الدم الساخن، ثم يشخص إلى الأمام.

تتلوى الطريق، وهي تسير في طريقها، بعد أن ضاعت من قدميه، وهو يقف على حافة جرح هار من القرف. يفكر كيف يجب أن تكون الولادة صحيحة، لقد أطلقوا زيفهم فغاب صدقهم، ولم يتبقى لهم في نفوس الناس أي أثر.

.. ..

تصطدم الرياح ببعضها البعض.. تصطك أسنانها، فتترك لنفسها الصمت كلما انسكبت الدموع من عينيه التي جرحها الألم.. ثرثرة يجد فيها ملاذًا للهروب، فيطلق بالونات الروح، ويغيب الجسد.

.. ..

يفتح دفاتر الوقت بعد أن يصبح وجدانه، مأوى للسعير.. الجميع يمرون في طريقهم إلى يومهم.. هناك من يتخندق مع الماء بين أمواجه، وهناك من يخاصر العشق المباح في ليالي السهر، وآخرون يرفلون في ثياب الجوع والعطش.

.. ينظر أمامه، يكتب حكايات الجموع الجائعة، وما تقله، ولا تقله جراح هذه الجموع، وعذاباتها، وهم يحملون نزف وجدانهم، فيقرأ شيئًا من رسائل التاريخ.

- الجبال لا تستسلم للرياح العاتية، وستبقى شامخة أبدًا.
- والشمس تلسع الوجوه بأشطانها الكاوية فتعطي الرجولة بلسمها.
- هكذا تكون الأرواح وهي تلتف بأحلامها المبتغاة.

.. تنهض أرغفة الخبز..

عيون كليلة تتحرك في محاجرها..

يدب في أوصاله الخدر ، يتشـرنق السؤدد في القلب، وعلى الألحاظ الطرق القصيرة طويلة.. طويلة..

الوجوه تحدق في الوجوه ، . الأجساد الممتدة تغرق في القيام ، . أقدام حافيـة تصفـع التـراب فلا يعكـر صفوها وجـع ، . تحدق في قسماته الريح ، وهي تصفر مبهمة ، . فيتحول صغيرها إلى حروف عزلاء.

"الأعـوان" يفنشـون ما يعتمـل في العقول والقلوب بوحشـية مباغتة ، ينظـر بقلبـه ، فيتمزق كل يـوم ألف مـرة ، ورغم هـذا يحتضن الضوء الشمسي الطافح بالكثير من الأحلام الصادرة.

.. ..

نقـوش مسـتطيلة الشـكل..تقف علـى اسـتعداد كامل فـي الوقت المناسـب ، يختلط وجعه بأصوات المشـردين ، العمـال ، والأعوان وهم يلاحقون راغبي الهجرة غير الشرعية ، ثم يترصدون الصبايا الفاتنات ، والأراضـي التـي تركوهـا خلفهـم ، لضيـق ذات اليد وعـدم إمكانية تعميرها.

.. ..

تحضـره أمه..تتقـدم منه.. ها هي تتقدم.. لقد شـاهدته.. وهو يتسـلق جدران البنايات الممتدة على طول الشارع.

يلتقـط غسـيل الملابس ، ويبيعـه بقروش قليلـة ، يسـتبدلها بلفافات رديئة تضم ألمه وبعض هواجسه.

.. هكذا كان صاحبه يتدبر أمره.. لقد اضطرته الظروف القاسـية لذلك..

كان يعتقـد أن حصولـه علـى إجازتـه العلمية سـيمهد لـه الطريق.. ولكنـه لـم يحظ كغيـره بما حلم به.. ازداد الشـد والجـذب بينه وبين القائمين على الأمر ، يومها كان الضرب قاسيًا..

لقد ذكره ذلك بما حدث معه ومازال يحدث مع من هم على شاكلته ومن هم ليسـوا على شـاكلته أيضًا..يومها ظل الألم يخنقني.. تحسسـت رأسـي ، فالتصـق الدم على كف يدي ، بعدها سـحبني المـاء البارد من

الغياب.

.. ..

الظلام يسبح على وجه المنطقة.. وطابور المحتجزين كل يحمل بطاقة هويته، يقضمون الدهشة هم لا يعرفون لماذا هم هنا.. لسعات الكهرباء كما هي دائما، لقد وصلت مؤخراتهم قبل أن تصل بيوتهم.. إنها عناقهم اليومي، كما هو الحال مع شوي الأطراف، واقتلاع الأظافر، حتى الأماكن الحساسة لم تسلم، لقد كانت نشوة الوحوش البشرية، متميزة تمامًا.

- يجب أن نثبت وجودنا دائما في كل الأحوال، وللجميع.
- أنتم بذلك تسيئون لسمعة الوطن.
- نحن نحب وطننا، . تخلص له ولكن من حقنا الحياة.

.. ..

سرح بفكرة هنيهة، . وغاب في الماضي ما هذا الذي يحدث، وماذا يسمع.!؟

لا بد من إرادة صلبة، وبشتى الطرق، لامتلاك شروط الراحة والمستقبل .. خفق قلبه لما يفكر فيه، شاهد الشرطي ما يحتمل في عقله.. تقدم منه محذرا ثم دعاه للابتعاد

- ولكن عن ماذا نبتعد..!؟
- عن هذا المكان.
- نحن هنا للمراجعة، ولم نتلقَ جوابًا حتى الآن فإلى أين نذهب!؟ سننتظر.
- إلى أي مكان.. انصرفوا.. لا أريد أن أرى وجوهكم مرة ثانية، وإلا سيكون مكانكم هناك.

.. كانت إشارته إلى السجن ممهورة بلكمة قوية كادت أن تسقط فكه..

شيخ جاوز السبعين يلاصقه طفل في الخامسة عشر يسقطان من أثر الضرب المبرح، كل منهما جواد جامح يلهبه سوط الحوذي..

.. أحدق في وجهيهما..

أحاول أن أعضّ عنقه الغليظ.. أقضم أنفه، يؤلمني أنني لا أستطيع.. ينظر إلي، يجلدني بسياط عينيه، ترتفع مطبات نفسي المتذبذبة، فانكمش في مكاني. تقذفني عاصفة الألم من عتبة إلى عتبة.. فأصمت ..

.. ..

..الشوارع تطغى على صمتها.. والعتمة تطغى على الشوارع، فرح ثقيل لم يتحمله قلبه أكثر من ذلك، ألمه في فرحه، وبهجته في ألمه.. ترتسم الأحداث على قسماته، كالجلاد المُسجّى على نعش الضحية، توتر صامت يجتاحه من جديد، بعد أن أعتقد أنه انتهي، لكن الأمل سينبعث مرة أخرى من تحت الرماد كحلم، أو كجنة قمح دفنت تحت الصقيع، لتحمل أحلام الربيع في غد قادم.أحلام صغيرة، تبحث في الزمان، يحضر التاريخ مملوءًا بالدخان بعد أن حزم حقائبه بالحزن والضياع..

- لي هنا بعض المصالح، لا أريد أن أُغيبّها، لأن حاجتي لها ماسة كما أنها حق ثابت لي.

- وهل سيتنازلون لك عن شيء كهذا!؟

- أجل، ولكنه ليس باختيارهم بل غصبًا عن إرادتهم.

.. ..

..يقف على جدار الأفق.. أبعد من امرأة يقف، وهي أمامه صباح مساء، يتغشاه الوهج، يفيض الهوى متبوئًا صدر المكان.. يصبح أكثر حيوية وخصوبة، فيظل مجنونها الأخير، وتظل بالنسبة إليه كالشمس الدافئة، والنور الذي به يرى. فهو يعرف جيدًا أن آلام الجسد زائلة، فقط يبقى لظى الروح مشرقًا.

.. ..

.. تطلق الشمس أشعتها الذهبية تقبل حزنها الصامت، فروحها توحي بالوصول إلى فرحة أبدية، جعلت السماء تضج بحبها، تبتعد

عـن الأكتاف المكتسـية بمعاطفها الثقيلة والريح حارس يشـق هزيع الليـل، يعانـق النجوم التي تتمنى أن يصبح الحلم حقيقة، وتشـد هواها فـي جنون الزحام.. يخرج فجأة، يعصر حبات قلبه أمامها ليؤكد مدى حبه لأسرته الطيبة.

- نحن لا نخشى شيئًا ما دمت معنا يا بني، أنت سند هذا البيت ندعو الله أن يبقيك لنا سليمًا معافى.

- أنـا معكـم وبكم.. لنفـرح معًا الآن، ولنترك حديث المشـاعر إلى وقت آخر..

.. ..

..أناس بسطاء، يلتقطون نشرات الأخبار، يوقظ عينيه ببعض فضول.. أفكار متداخلة، قضايا متباينة، وهو لا يزال سائرًا في الطريق..

ها هو يسير، إنه لا يلوي على شيء.. ينزلق بعينيه الحادتين إلى كل ما حوله، يغوص بهما في أعماق الأعماق..

تقدمـت منه أشـجت بوجهي عنـه، فقد كانت خيالاتـه في نظري، حقائق ماضية تتجسد أمامه، وهو يتقيأ ربع قرن من أيام اللهاث..، هي سنوات عمره التي تكاد تصيبه في كل مرة بالاختناق.

.. ..

.. يتسلل إلى أفقها، وهو لا يعلم بالمفاجأة القادمة التي تطرق الباب، إذ من الممكن أن تبدأ صفحة جديدة معها.. وحياة جديدة..

٤

.. ..

لـم تكن «الملاسـية».. سـوى نجمـة مطفأة فـي مدينة امتـد وجعها ليغطـي كامـل دوائر الأفق.. إنها خاصرة قرطـاج.. حاضرة الوطن التي أحبهـا وأحبته، وظل يحلم ولها، وهي تحدق في مقهى الزفزاف، الذي يحكـى عبـر دورانه، قصـة الحلم، الوجـع، والحريـة كعناوين أولى للتفتـح، وكشـف دفاتـر الماضـي، والحاضـر، مؤكـدًا أن حالها لا يختلف عن حال، الجبل الأحمر، المليء بالمهمشـين من الناس، الذين يأكلون اللظى، وهم يقبضون على الجمر، وينامون في قلب الأسرار، ثم يحلمون..

.. ..

يستحوذ العذاب على تفاصيل اليوم الصامت.. ينطلق وجعه من وجعه.. يبدأ في رشف حليب التفكير، حتى لا يفوت الوقت على الحقيقة التي بـدت سـاطعة كضـوء الشـمس.. يهجـم عليه الحلـم المدجـج بأصابع الحمي.

يحدق في داخل الداخل، حي «الملاسين» رمز للفقر والبساطة، أهله يضمون أحلامهم، وأحزانهم في شوارعه المترية، لا يرجون أملا سوى مـن الله، بعـد أن فقدوا أملهم فـي المتنفذين من النـاس، رغم أنهم لم يقترفوا ذنبًا يعاقبوا عليه، سـوى أنهم فقراء.. يدندن مكررًا ما نصحه به الطين.

لا بـد مـن الصبـر، والحكمـة فـي أن يصمت الإنسـان فـي كثير مـن الأحيـان، فها هم أهـل الحي يدقـون الوقت بأحلامهم البسـيطة، وأظافرهم في رحلة البحث عن بعض من الهواء الطلق، الخبز اليابس، وبقايا أطعمة يفتشون عنها، فلا يجدونها بالكاد..

يتقـدم إلى الأمام.. يدق بندول عقله.. يضع أيامه السـابقة أمامه.. ها

هـو يقدم أوراقه المحشـوة بالصمت والانتظار ، رغـم أنه يؤمن أن كل تعاسـته من الواقـع ، وليس من مخيلتـه ، ربما يسـتطيع العقل أن يجعل الجنـة جحيمًـا والعكس ، فلا شـيء يجلب للشـخص طمأنينته سـوى نفسه.

ولكن هل يحدث ذلك رغم كل الخيبات السابقة ؟!

وإن حدث ، متى وكيف سيكون..؟!

يشـرح لذاتـه التي تحـاوره بعضًا مما حـدث ، إنها المـرة المائة التي يخذلـه فيها النـاس.. وبالذات هؤلاء القائمون على أمـر البلاد والعباد ، الذيـن أكـدوا لـه مدى قـذارة السياسـة ، وقدرتهـا على تغييـر طبائع الرجال ، لقد عذبوني كثيرًا ..

كم حرقت السجائر جسدي ، وكم ضرب رأسي بالحائط.

ناهيك عن الشـتائم البذيئة ، فهذه حدث ولا حرج.. ليس هناك قانون لأشـتكي.. لا أسـتطيع أن أقاوم ، أو أن أفعل شـيئًا. علاجي الوحيد هو السـكوت.. جسـمي به كل الألوان وبصمات الإهانات المختلفة. فإلى أي مدى يستطيع الإنسان أن يصمد..؟!

.. يبـدأ التفكير بالذهاب إلى هنـاك.. حديث الألوان ، همس للذات يكتب نفسه مرة أخرى ، يلفه تفوق إنعتاق الدموع ، والعبارات.

- لقـد ظلـوا يضحكـون في وجهـي لكنهم يهزأون منـي عندما أدير ظهري.

- وهل لك عيون في ظهرك لتقول ما تقول؟!

- لقـد اتصـل بي أحد الأعـوان أكثر من مرة يطلب بعض المال لينهي كل شيء.. لقد كان إحساسي في محله.

- ليس كلهم كذلك. فأصابع يدك ليست واحدة.

- أجل ، هذا صحيح إنه الواقع الذي قد يرضى البعض لكنه لا يجبر الناس على مراعاة الناس.

.. ..

.. عيون اعتادت أن ترى .. وكأنها لا ترى تحدق عن قرب ورجل يبحث

عـن المطلقات، وأحيانا يفكر فـي أمور الدنيا وقضايا باتت باهتة، لا يخشى شيئًا فقط يحاول أن يثأر للماضي، الذي جرحه كثيرًا، بعد أن كثرت الرطانـات، وأصبح الباطل أكثر قوة لأن معه الميديا والمال، كذلـك يغرق مع أناسـه في كؤوسـه المتتابعة التـي يدلقها في جوفه كأنـه يصفع كل الذين عاقـروا جرحه وتأزمه ، حيـث باتت البطولة جنونًا يتمثل في الصبر، والعض على الجراح.

- ماذا بك يا هذا!؟

- أنـا أبحث في كأسـي عن كسـرة خبز نظيفة. انظـر إليها، هناك الكثيـرون ممـن هـم أمثالنا رغم وجعهـم يضحكون سـخرية وأحيانًا يبتسمون.

- لم يعد هذا الوطن لنا جميعا ورغم أنني أحبه، قد تكون الهجرة إلى الشاطئ الآخر بابًا ينقذني مما أنا فيه.

- ألا تنتظر بعض الوقت؟!

- لا فائدة فلقد مل مني الانتظار، لهذا قررت وهممت بالرحيل.

.. ..

..إنه يرى نفسه في بؤبؤ عينيها. فما بينهما من علاقة لا يجب أن تنتهي هي ليسـت علاقة عابـرة ولا من نوع تلك العلاقـات المغامرة التي تغيب بسـرعة إنها بلدة أرضه التي أحبها، كما لم يحب عاشـق معشوقته.. لا بد من ذلك..

ليس له إلا هم "تونس" و"تومية" وأسـرته..،ولأنه قريب منهم، وغريب عنهـم وفـي نفـس الوقت بعيد عن تحقيـق ما يصبو إليـه، رغم أنهم في قلبه وكل مسـاماته، فكر في الهروب خلف البحر، صوب الشـاطئ الآخر..

فهناك المال، والحلم ، وبعض من الحب الرخيص.

وهـو بحاجـة إلـى تحقيـق حلم والدتـه بامـراة، تصهل فيـه، وتذيب شقاوتها، وسكر شفتيها على شفتيه.. لا بد من ذلك ولا داعي للقلق من قـرار كهذا، المهم حسـم الأمر، وعدم التريث.. هكذا أقنع نفسـه،

حيث صار يسمع صوت الحياة، ويكتشف معنى جديدًا لها، هذه هي السعادة الحقيقية، سعادة من لا يملك إلا كرامته وكبريائه..

.. ..

في البداية ظل يراها في منامه..

كان صامتًا، ومحايدًا، وبالتدريج صار يتحرج من عمله، كلما أطبقت عليه الأوامر، وضيق الحال، بحيث أصبح عمله الهامشي هذا كعمل صبي تراحيل، حصارًا له، جعله كجماد ثابت، ظل يلازمه كجزء لا يتجزأ من حياته.

.. ..

.. في الخلف..

الضباب ومداخن «سيدي بوزيد»، ترسل الدخان نحيبًا دافقًا في الفضاء، يسير عبر الطريق الشجري المظلم، ينحدر ضوء المساء خلال الأغصان.. تفيض عيناها ببريق لازردي أخضر، نسماتها الوردية، كما نهار مقبل ساعة الفجر.. عاليًا يزأر، كان تفكيره فيها يشعل كل أيامه، وهو يتلهف على الوطن.. زفراته صامتة، ساكنة، وذاكرته.

رعشة الاستجابة القوية.. السماء تغطيها بهجة زرقاء.. يود أن يحصد أيامه فرحًا، تعانق الصلوات شفته، تطوقه الجدران السميكة، والطريق يمتد أمامه طويل.. طويل.. الهوى ضوء وأسى.. ولا أحد يمد يديه مهونًا، فكثر من هم مثله..فمن يواسي من..؟!

تباغته العواصف.. تهرب منه أجمل الأيام..وهي تفتش في قلبه عن أثر من الماضي..فوقه تومض نجوم السماء..تلهو وتنظر مصغية وهو يصلي.. النجم غارق في الحلم، والطبيعة مرة أخرى تصغي إلى الله..

- لماذا لا تعانقنا الحياة الناعمة ولا تنفحنا ببعض نسماتها..أحس دفئها، وأنفاسها العطرة، دون أن أستطع لمسها، هل هو الحظ أم ماذا..؟!

- نحن هنا كي نتشارك في عمل هو كيف نقطف المستقبل..؟!

.. يعود إلى البيت..

يستلقي ليأخذ قسطًا من الراحة، يرشف الشاي الذي استخدمته والدته للمرة العاشرة، مع صديقه الذي يدعوه الأمل للذهاب معه..

يسيران في الطريق الترابي.. الأزقة المظلمة، البيوت الرطبة تحدق في حيطانها المتهالكة، يدق الصديق الباب، ثم يتراجع قليلاً، يقف بجوار صديقه.. يخرج "سي الحبيب" إنه وسيط المهرب، هذا عمله الذي يتحصل منه على بعض الفتات، يشير بيده، ثم يذهبون جميعًا إلى الشخص المقصود...

.. ..

يجلس ثلاثتهم في "المربوعة" التي يتوسطها كانون، يعتليه "براد الشاي" الذي يسكب منه بين الفينة والفينة في أكوابهم التي يرشفونها بتلذذ".

يتفرسه بعد أن يلاحظ ما على وجهه من امتعاض وحيرة.. يرسم التوجس علاماته الفارقة على الوجوه.. يبتلع ريقه.. بعد أن تصله شارة الشفاء.

- هذا الضيف، أمين، جاهز، وكتوم المهم السرعة في التنفيذ.

- أهلاً وسهلاً، سأحاول أن أساعده رغم أن الظروف صعبة فكما تعلم هناك الكثير من الشباب الذين يريدون الخروج، بحثا عن المستقبل.!

- وماذا في ذلك، أليس هذا حق لهم..؟!

.. ..

.. يا له من صديق طيب..

هذا الرجل البسيط، الذي يصحو وينام على حلم رومانسي أبيض يعرف أنه صعب التحقيق، لكنه سيحاول، تأخذه أحلامه إلى أماكن بعيدة، تشده من تلابيبه مرة، وأخرى ترفعه على بساط الريح، وتدور به إلى مختلف الأماكن والمدن.. يسكب الشاي من جديد، ينظر في عيني صديقه هامسًا.

هل تثق في صديقك هذا، لقد كثر النصب والاحتيال، وكثرت

تبعًا لذلك، المشاكل، وحالات الاختلاس. لهذا الانتباه واجب.

- أرجو أن يكون صديقك غير أولئك ممن نسمع عنهم. فما سأدفعه، مبلغ استدنته كي أصل إلى "لمبادوزا".

يذهب بخياله إلى البعيد، هناك خلف البحر، الطعام النظيف العمل، والكهرباء التي تسطع على البيوت والنفوس دون انقطاع.. تتعانق الابتسامات مع الوجوه المستنفرة يذهب إلى بداية الفرح الذي عانقه. للمرة الأولى اليتيمة في حياته، فلقد تحصل على إجازة النجاح على أساس أنها ستكون بداية لمستقبل ظليل مفترض، يجمع كل ألوان الطيف في بيتهم الصغير تمتد اللحظات أبوابًا واسعة، أمام ناظري.. وعلى قارعة اللهفة. أقف وأنتظر.

- إذا كنت تحب التفاح هل يجب أن يحبك التفاح أيضًا وبنفس القدر..؟!

- من الممكن شراء كل شيء بالمال، لكن هل من الممكن شراء الأصدقاء أو السعادة بذلك. اعتقد أن هذا غير ممكن!!

- ماذا بك. المال يحل كل المشاكل. حتى النفوس.، كل الرجال يضعفون أمامه.

- إلا الشرفاء، والشرفاء وحدهم.

- الجميع يتحدث عن المواطنة. والإخلاص للوطن، وكأن ليس لنا علاقة به، وهم فقط أصحابه.

أتذكر كيف تقشر جلدي. وإلى أي مدى لثمت الكرابيج المملحة جسده الغض فأمد يدي لأجد نفسي محاطًا بيوم صامت.، تطلقه عيون صامتة، وقسمات حادة،

- أنت ضد الطمأنينة في هذا البلد.

- أنا ابن هذا الوطن.

- إذن لماذا هذه اللهفة التي أنت فيها..؟!

- يا أخي لكل إنسان خصوصياته وظروفه.

.. ..

..لقد تأكد بأن الإنسان ليس أكثر من قيمة..

لكن لا قيمة هنا إلاّ ، للدجل، المداهنة، والمحال، وأمور كثيرة غريبة.. خيوط الدخان تلملم أردانها تبادرني بابتسامها المعهودة.. تتثائب الأيام، ها هو يعتصم داخل إهابه. يود أن يقطف بعض حلم وسعادة.. لم يستطع خطف وردة ساطعة كالضوء.. وعندما احترم القيظ رشف الماء المالح رذاذ وجهه فضاع ذباب الكلام..

.. ..

لحظات قصيرة.. يقف خلف شباكها.. يعود أدراجه ثم يراقب الشباك.. المكان يطلق ابتسامة غريبة، عريضة، لكنها هادئة.. يتجه إلى والدته، يبحث عنها وسط الدار، يسمع أصوات حركتها في المطبخ.. يبتسم ثم يذهب تجاهها.

- أهلا يا بني يسعدني رؤيتك من جديد، إجلس كي تأكل طعامك معنا. إخوانك بانتظارك.

- لقد أحضرت لكم المال، والهدايا الكثيرة.

.. ..

يبتسم.. يواصل..

يؤكد لوالدته أنه سيشتري بيتًا جميلاً.. وسيحقق لها رغبتها بأداء فريضة الحج للبيت العتيق. ثم يتزوج.. أليس هذا ما تريده؟

يعود إلى ذاكرته الطفولية.. التي تعود به إلى البيت ثم تسحبه إلى خزانة الملابس، يخرج لعبته القديمة التي ظلت والدته تحتفظ له بها على أمل أن تهديها لأول طفل ينجبه، قطرات العرق تغطي وجهه المتعب، عيناه تحملقان، وتذهبان في كل اتجاه في ظلمة الغرفة، ، صورة والده خارج الخزانة، ، تصرخ مزلزلة المكان.. تدعوه للانتباه.. ينظر إلى أعلى، تحدق في وجهه بقعة ضوء:

- الصدق لن يثنينا عما نريد، المهم التنفيذ، حتى لا تبقى حالة الحزن الطويلة إلى الأبد.

- سأفكر في الموضوع وإذا قررت سنحاول معًا، ونرجو أن يكون

كل شيء على ما يرام.

.. ..

تقدمت منه، امتدت إليه قدمت له فروض الاحترام، وحينما عثرت أشعتها الساطعة عليه أحرقته، لكنه استغرق في النوم تمامًا.. سيدات فاتنات مطوقات بالورد، رجل يرقد عند جذع حائط كان يعرفه في الماضي. يحمل على كتفيه أحلامًا حزينة نزف القلب رأس محموم بجمرة لا تنطفئ لهب العروق يحترق، جيوب فارغة، وكذلك الأمعاء، والأم الشقية كتلة بشرية تعاني بصمت، صبايا حكم عليهن القدر بالبقاء بين جدران البيت المتهالكة. يحاول أن يفعل شيئًا، ثم يحاول مرة أخرى لكنه لا يستطيع أن يطرد الأفكار السوداء الدخيلة فماذا عساه أن يفعل!؟

.. ..

"تومية" نجمة على شكل امرأة تسير في رشاقة النجمة.. بيضاء الجناح شعرها الذهبي مجدول بشرائط الفرح. إمرأة ذات عيون فاطمية، عارية الرأس، مجدولة الضفائر.. تأمر عليها الصقيع.. والثلج الذائب يرسل لها نظرات من فقد الأمل.. شفتاها الشهية تشكل لكمات خرساء.. لا تزال قبلاتها الملونة، تشتعل مثل لهيب متوهج على خده، وجبهته، وعند الأبواب والشبابيك، زوجات الجيران ينظرن إليه باحتقار.

- ما هو مقدر أن يكون سيكون لا بد من ذلك.

- لن أخبرك، لماذا دخلت، ولماذا قررت، فللرب وحده سوف أبوح بالسر.

- أنا لست غاضبًا منك، غضبي من نفسي فقط، لا أستطيع العودة إلى الخلف، هذه هي الحقيقة، لكن ربما نلتقي مرة أخرى، من يعرف..؟!

.. ..

رجل يعرش على كلماته الياسمين.، عشقته العيون والقلوب، يلف همومه في ذوائب النجم مرة، وفتائل الشعر مرات.. يعشق حرية الحروف، يجول الأمكنة دون خرائط، إنه يعرف وطنه جيدًا، لذلك يرسم كلماته ألعابًا، وموجات فرح، يستفتي قلبه دائمًا، يطرح

الكثير من الأسئلة دون أن يجد لها إجابة خاصة، ويعرف أن الفرق بين العقل والقلب، كالفرق بين الماء والسراب في صحراء واسعة.. يقف بين ذاته وذاته، تحمله همساته إلى المكان المظلم.

- الحرية المفتوحة في الكثير من الأحيان تنتج الفوضى.

- لقد تأخرنا كثيرًا. وهذا تراجع غير صحي

- لا تراجع. أنتم فقط من يعتقد ذلك. فكل شيء هنا إلى الأمام.

.. ..

.. يصمت.. يبلع ريقه.. يعضه حلم الحرية.

فهو يعرف أن لكل إنسان طاقته، وكل شيء له حدود، حتى الظلم، ولكن يحتاج الأمر إلى من يدق الجرس، ويقرع الخزان، ، فهل الجوع هو الذي يدفع إلى ذلك أم الشبع أم هي الحرية الغائبة، خاصة وأن العديد ممن يدعون حب الوطن يتراجعون بسرعة، وكأن ليس عندهم إحساس بالمسئولية.

- لقد بحت بكل شيء، ولم يعد عندي ذرّة من الأسرار، أهم شيء أن تقول لا للظلم.

- أنا أكره الرجل الذي يتلقى الأوامر ويطبقها. لأن معنى ذلك، أن رجولته مقصوفة.

.. ..

يسير بخفة وسرعة متناهية، صوب منطقة في طرف المدينة المهملة.. الشمس ساطعة، الطقس حار، تسيل قطرات العرق من على جبينه المجمر، جراء مجهوده الكبير، حمامة بيضاء تحلق عن بعد يشعر بالتعب. فيجلس على صخرة ناتئة لالتقاط بعض الراحة.

.. تلسعه حرارة الشمس...

يجتاحه الأرق، يرفع رأسه عاليًا، ثم يبدأ بمسح العرق بكف يده، ينظر إلى أعلى. يرى الحمامة البيضاء في الهواء قريبًا منه، فيبتسم.

.. يلتقط شنطته الصغيرة..

جموع من الرجال أعمارهم متباينة يتجهون صوب المكان المعد..

يتزاحمون.. يتدافعون، بدا على محياه، وكأنه خائف من الفشل فصار كمن فقد أمله وخاب ظنه، ، يتجه إلى صديقه، يشير إليه بالصمت وعدم الحديث، ويشعره بأن كل شيء على ما يرام.. الازدحام يضغط بكلكله على المكان.. يُطلق إشارة سريعة تحذر الجموع من التقدم.. وهم يقبضون على أنفسهم ثم يحتجون بعض الشيء..

- لقد ابتعدنا عن الجسد، لتفتح الطريق للدخول إلى مملكة الرب للقادمين الجدد.

- سنترك عالمًا. لسنا بحاجة إليه ونذهب إلى عالم جديد.. جديد، عالم ما بعد الموت.

- لي أسبابي الخاصة، وهذا كل ما في الأمر.

- لقد نشأت دون أب، وأنا أعرف معنى الحياة وحيدًا، لذا سأعتبرك أب لي. فكل تفاصيل حياتي، وعائلتي بيدك وحدك.

- سأعمل كل جهدي لإيصالكم إلى ما تريدون..، وحيث تريدون..

يتأكد أكثر أن كل الناس متشابهون. الكثير منهم من الفاسدين، وكثير منهم من يقدمون طاقة روحية للكون، أما أصحاب السلطة ممن يجري في عروقهم الدم الأزرق. فليس من مصلحتهم الغاء الحواجز، والشوائب بين الناس، إنه يعرف ذلك جيدًا، ويعرف أن جملة من الطقوس الملوثة هي أصل لكل الأشياء.

.. ..

.. لقد طال الانتظار..

الأيام والشهور تتقدم.. ها هي تؤكد أن الوقت قد أزف، وغيوم صافية خجولة، تحاول أن توقف ركض الموج عن وجه القمر، ، ينتظر الصيف التونسي الدافئ. يحاول مرة أخرى مع الضوء، يفتح عينيه مع الفجر القادم، بعد أن يخلع الكون ثوب ظلامه.. الشمس تتقدم دورتها.. وجوه مكفهرة تحدق في الماء العميق بوجوم بالغ.. يؤكد صمتها أنها أقوى من كل تعبير، الكل يبحث عن لقمة شريفة. افتقدها في وطنه، لقد هربوا من جحيم الأرض التي ولد فيها، ليذهبوا إلى جحيم الماء.

بهـدف الوصول إلى الأرض التي تفتقر إلى صفارات الإنذار، ولا يخاف فيها الإنسان التعبير عن وجهه. وهواجسه..

.. ..

.. يقضم قطعة من الرغيف الجاف الذي حمله معه.

غمرته الحسرة، وهو يتذكر كيف زودته أمه بهذا الطعام البسيط، وهي تداعبه برقة المعتذر، هذا ما لدينا يا أمي.

تأوه ألمًا مكتومًا.

يختصر المسافة بين القلب والأرض عبر شريط يربط البداية بالنهاية، القلب يحترق ورذاذ المال المالح أقسى من حرارة الشمس التي تلسع الجميع.

.. ينظر فيما حوله..

البحر مشتعل بالأسماك والوجع.. والزورق يحمل الشوق والفقراء، يرفع المهرب شوارع قاربه الصغير، ليكتب قصته بحارة، "قرقنه"، وهم يندفعون تجاه "الشرفيه" ويبتسمون لصيد البحر الهزيل الذي يأملون بتوديعه..

.. ..

.. حشاشات عطشى..

أمعاء خاوية وشفاه جافة وغليظة تحاول انتزاع الصمت والرطوبة من صمتها وتزويد ذاتها ببضع بلل، تنسرح الدقائق، وهي تغرق في خوفها، والأزرق المخيف لا يستثني أحدًا.

.. سنة من النوم اجتاحني تذهب عني فجأة..

شيء ما بداخلي يتحرك لمعرفة ما يجري، العين والفؤاد رغم انكسارهما يطاولان أعنان السماء، ، تقفز الأبواب والشبابيك تصب العين في العين لهفتها والزورق ينزلق بحذر على صفحات الماء الأزرق، الذي يطرق الوجوه برشقاته المتتالية. هي هجرة الفضاء البعيد، إلى الخبز، وإلى الكرامة حيث يعتقد، الكرامة التي عصرته عصرًا عندما حمل تشرده وأصالته، وذكرى الأحذية الثقيلة، وهي تعانق

الصدور، وترسم على الجلد قروحًا ناتئة، عضته حتى النخاع..

..انساح شريط ذاكرته..

بصق على وجه اللحظات، وهو يتذكر كيف زحفت القبور على الدور، وكيف استبدل الدم الأحمر دمه بالخبز الجاف، لقد كان بجواري عندما حدق في وجهي، لقد كان شرطيًا فظًا، عرفت إنه لم يقرأ ما يجول بخاطري رغم أنه يحاول اقتناصة، بلعت ريقي، وكلما ارتطم خدي بكفه الغليظة، انحسر الضوء عن وجهي كان لا بد من الصمود، إنه صراع الأمنيات والبقاء، المفعم بالأمنيات والبقاء والذي لا بد منه.. ينسحب الشرطي فجأة يمسح بعينيه جدران المكان.. تحجرت العينان.. الكلاب البولسية ترسل هرير إنذاراتها، ثم تصمت، لكن لا أحد يعرف ما به من وجع.. يطفئ مذياع ذهنه، عيون تتسع بحجم الكون، تنسدل على كامل الجسد، يلجم خيول وجعه. في البحر متسع للجميع.. تستطيع الهرب، أو الموت إن شئت، لك الخيار، فلا أحد يؤلمك، ولا أحد يعلم عنك شيئًا، لكن ألوانك تبقى هي ألوانك. كما الماء الأزرق، وهو يختلط برذاذ الكلام.

- وهؤلاء الذي ينتظرون. ماذا لهم؟!
- الجراح سجينه وماء البحر طليق حريتهم فيما بعد الماء.
- وهل نصل..؟!
- لا بد من الوصول.

.. ..

يتوه في عوالم بعيدة تعربد في مخيلته جملة من الأفكار المتماوجة ترتفع أنفاسها ساخنة ملتهبة.. يتوغل معها في قاع الوقت يحاول أن يهز أركان العذاب الذي ينطلق كلامًا بحجم الكراهية. يقف في شوارع البوسعيد، تطلق الكأس الأخيرة لسان حبه كلما فكر كيف ستحتويه المدن التي تمر كانطفاء السيل بعد أن طفح اللحم البشري على الماء.. يمد يده إلى صدرها النافر، يلتقط من لون الرماد كحل عينيها، يفرك أنفاس الكري، وهي تحاول أن تحمل حقائب موتها

فتتسائل عقارب الساعة.

- أيتها المرأة التي تضعني في بؤبؤ عينيها كلما غطست في كؤوس فرحي، قدمي لي أوراقك الملونة.

- سأظل لك، مهما عاندتنا الظروف.

- حاولي أن تشربيني.. فأنا نسغك، وفرحتك الأولى.

- وأنا كذلك.

.. ..

يحاور الأمكنة..، يفرح للأوراق التي أحرقت الموت ذات مرة ينتمي لقافلة البوح، ويحمل موجها على كتفيه، بعد أن يتأكد بأن هناك مواقف أوليه للعيان، بأيديهم المناديل الملونة، وعلى ألسنتهم دعاوي الرفاه، وطول العمر.. يحضر "الدغباجي" فتنطلق ثرثرة صامتة.

- التاريخ حياة مسكونة بفربال يحكي قصته الناس والعالم.

- لا يجدي الصمت، لا يجب أن تظل تحزن من حقك قطف بعض الفرح.

.. ..

يشعر بأن قدمه تقتلع من قاع الزورق يطفو حلمه على الريح، والماء عندما يحضر طيف أمه الذي يحلق فوق جهات الأمكنة..، يتذكر كيف ظل يسبح في دمه المتخثر النازف من القلب والخاصرة.. يصدمك المشهد عند كل منعطف، وأنت لا تستطيع البقاء صامتًا إلى ما لا نهاية. يحاول أن ينتصر على جراحه.. ويحلم بعالم يود أن يقتلعه من جذوره، وهو مصمم على الذهاب في طريق الحرية، حتى النهاية.

.. ..

الوقت المرقوم باحتقان المسافات وحزن أيامها، يحدد للجميع أعمالهم: تصيبه رعشته الخوف عندما يرى المتنفذ يتهيأ لابتلاع فريسته، فيهرب من عينيه النجم الطفولي، وتطفأ البسمة من على وجه القمر يتملكه شعور بالضيق والرجفة.

يالها هذه الذئاب البشرية من عطش الأيام.. يالها الفئران، والجرذان،

إنهم يحرثون الأرض في أكبادنا.. لكننا لن نتراجع..

.. ..

يقف الماء على سطح هواه تحتضن المسافات مسافاتها ، والبحر عيون تحدق في وجع الزمن الجامح، موجة طاغية تنثر رشاقتها على الوجوه الكليلة التي تتطلع حالمة بشموس قادمة ، تتمازج خيوط الضوء مع خيوط الماء ، ورذاذ الوقت يستحوذ على الأنفاس. يأخذك الفيض إلى فائض أكسيد الوجع تلفك تراتيل تخلع قميص عثمان ، تجعلك تقف على حافة الدوار ، يشعل نار هواه.. وهو يرى الأرض يستطيل في خاصرتها جنون الموت ، العيون تجرح العيون. ثم تخرج منها.. وهو فائض خارج عن الطاعة.

ينظر من زورقه فيرى كيف يغوص الطريق الترابي في الماء يحاول أن يقبض على تفاصيل القمر يستدل بنوره في الطريق الطويل، عبر منافي الروح يسير.. يمخر شطان يومه ، بعد أن عبرها ذات يوم، كان الزمن الأول يحمل بين إرادته ، وهج الصبر الذي يقارع الظلم من أجل وطن صاف ، لا يغيب لهيبه في الربع الخالي.

.. ..

يحمل أسفار مجريط، ، يشرب حكمة أسد بن الفرات، وهو يرفع سيف "الأغالبة" الذين وصلت مراكبهم إلى حيث يميح زورقه أمواجه. تعتلي أمواج البحر لدائنها ، تقدمها للنوارس الضاحكة التي تحلق فوق رأس الزورق ، وهي تبصق في وجوه أصنام الليل ، الذين ظلوا يجوبون القرى يكسرون الدفء ، ويشربون كؤوسهم على بساط لحمها ، يحاولون القبض على أسئلة عينيها. لقد حاولوا ذلك كثيرًا.. فوقفت جامعة الزيتونة. تفتح منافذها ، فتناثرت المقاعد من تحت بايات تونس ، وميراث المدافع العثمانية ، ، ولبس الدغباجي" ثوب الفرح.

.. ..

.. يطلع فوق الأفق..

.. يتسلق الانبهار..

الانهمار اللذيذ يدق ساعة فيئه في المياه الهائجة، بين الفراق والغرق، الصدق الملون، نسيج من اللحم الحي، الفقر المسلح والياسمين الفذ، وهو يقبع بين ساريه.. وساريه. الخوف المشنوق تتدلى أرجله في الزمن الغائب، يضع بصماته على أجنحة الأزقة في قرقنة وأرتال "جربة" ويقطفها نجمة نجمة".

.. ..

..تسترخي الوجوه على صفحات هواء المركب..

يهطل صمت الماء، فيرحل الأحمر إلى الأحمر، والأزرق الوحشي يلثم أنفاسها العطرة، يعطس الرذاذ، فيبلل الوجوه الحالمة. تشمر الرموش عن عيونها.. تتطاول الآذان لحظة توقف الزورق الموحش.. يقرصه الصمت الجحود اللدود.. إنه البعاد المدجج بالعباد وغياب حنان الأم التي زودته بأرغفتها الجافة..رفع رأسه إلى السماء، يبحر في جداول النجوم تحضر إليه تومية تتداخل الأفكار والقلوب، فيمسك جدائلها المتدلية على نهديها. ويتوقف عن الحملقة.

.. ضوء الشمس يسحبه إلى الأمام..

والوقت يتنفس زبداً، ويسفح ليله بضوء جوارحها.. يعتصر حليب الوردة، يشطب من طريقه محطات كثيرة.. يقتحم جراحه، ويقترض بعضًا من الوقت، يحضره صديقه الذي مات قتيل رائحة الخبز، والأمعاء الخاوية. يتأسف كثيرًا وهو يشاهد كيف تصفع أضلاع الشارع المنافي ومعارجها. التخوم عارية. وما تيسر من خطايا تلوث خطاياها. وهو يعرف إلى أين؟! لكنه لا يعرف إلى متى وإلى أي مدى؟! فأين يذهب في لوعة الخواء، ولذعة القلب المصطلي بشابيب بين النار وألوانها الغامضة؟! يأخذه الفيض من جديد.. يشاهد وردة حجرية مزروعة في طقس جنائزي.. قهقهات الرؤوس المقطوعة والأعضاء الملونة بأصباغ الكرابيج المملحة تبصق في وجه الكروش التي لثمتها القروش، وتصفع وجه دراكيولا القابع في حديقته العتيقة التي يرفد نسغها دم الفقراء من الناس.

.. ..

ميـاه البحـر تزدحـم بأفقها فيعضـك لثغ هواهـا. حلم الوصـول إلى لمبـادوزا يحتـاج إلى فعـل أبيض. يندلع في نفسـك المنفـي وأنت تتعثر فـي زوايا المـكان عبر فجر طالع من جحيم السـواد. يغادره الشـاطئ دون التفاتـة منـه.. الكلمـات تتراجـع، ترفـض الخروج بعد أن يبسـت فـي الحلـق، وظلت واقفة بين الصـدر والبلعوم.. الطـراد البحري يمخر عباب الموج، مطلقا أنواره الكاشفة على سطح الماء، يجري بسرعة، يخفف من سـرعته.. تدور الأنوار من جديد، يتعالى نباح الكلب عندما يلمـح حركة الزورق فـي الظلام، الأمر الذي يثيـر حفيظة آمر القوة، صمـت كأنـه صمت القبور.. يقبـض على الأنفاس.. تنـزل الرؤوس إلى أسفل.. وتتكور الأجساد في ذواتها.

- اصمت إنها الشرطة البحرية.

- من أنتم!؟

- نحن تونسيون.. جئنا نبحث عن عمل .

أشـار الضابـط لأثنيـن من عناصـره بالتوجـه لفحص الهـدف يتقدم الشرطيان، يسبقهما ضوء مصباحيهما القوي باحثًا في ثنايا المكان، حتى يصلا إلى عمق الزورق.

.. يتكاثر رجال الشرطة..

يقتادون العيون المشـدوهة إلـى أحد المراكز الطبية، للتأكد من خلوهـم من الأمراض المعديـة.. يحزمون هذا التجمع البشـري الصغير في معسـكر أعد لمثل هذه الحالات ينظر من شـباك الحافلة، محاولاً التخلـص مـن الآلام المبرحة التـي يطلقها الحذاء الـذي يعتصر قدميه بقـوة لا مثيـل لها.. ينزف ألمه أكثر.. يتأوه بصمت.. يذهب به خياله إلى هناك.. ها هو يسير في شوارع روما الشوارع المنظمة، الكاتدرائيات، الحدائـق النظيفـة، الناس كل يسـير فـي طريقه لا يلوي على شـيء، فلـكل دوره، ويؤدي عملـه بصمت وهدوء، يسـتقل الحافلة، ثم ينتقل منها إلى قطار يتوقف في المكان المخطط له. يبدأ الركاب بالخروج،

بينهـم "محمد" حاملاً حقيبتـه القديمة، الصغيرة. خطوات رسـمها في ذهنه مسبقًا. يخطوها، ثم يتوقف يذهب بعينيه إلى كل اتجاه، العديد من الألوان، والأسلاك البشرية تنظر في وجهه.. يلتفت حوله وعندما لم يجدها يهبط من أعلى.. وسادة كالغيم بيضاء، تؤكد أن أصل الطريق خطوة واحدة.

.. ها هو في روما يحمل وطنه على كتفه..

مفاهيمـه شـحنات متفجـرة، تحلم بمجتمـع جديد يصنعـه الفقراء للفقـراء، إنـه لاهـوت التحـرر الجديـد، فـي مدينـة مقدسـة نازلة من السماء، يطوف في أفقها حصان أخضر راكب يصفع الموت.. يعتصم بصمته للحظات، ولأنه يعرف كل شـيء لم يكتف بدور السـاكت إذ أن الأسئلة لم تدفن بعد.

- الغيـاب مقبـرة الحـب والحيـاة رغـم جمالهـا، كذلـك، كمـا أن الحكايا كما هي لم ولن تتغير حتى إذا غيرت.

- إنها لغة المراحل، فالوجوه عزلة يومية ترافقني، تفصلني عن ماضٍ مـا زال يلاحقنـي، ولا أدري كيـف ألقاه، وأتعامل معـه، إنه يكبلني بسلاسل، ويحفر في نفسي ألمه كل لحظة.

- هذا حديث لا يفيد، فأصعب الأمور أن يختفي عدوك داخل جسمك لهذا يحيا الفرد إذا قتل عجزه، ورفع راية الانتماء..

.. تتقـدم منـه، تقدم له قبلة دافئة، وثلـة من الأصدقاء القدامى. يقف أمامها.. يتفقدها.

.. تبتسـم كثبان الرمال في وجهه وهي تتفصد عرقًا وتعلق تواريخها على أصداء الذاكرة.. يودعها سـره على حين غرة من غربته.. الضفيرة لم تغير لونها، ينظر للأرض وهي تفصل بين موت ومنفى..

النوارس تخطف عشب البحر لاهثة. والزبد المهاجر يعانق شعاع موج غربته. ركام الحديث يعانق كتلاً من القول..

- هل يتفقون على أمر إن لم يتفقوا على موعد.

- المواعيد نافلة الأيام. لا بد منها.

- لا مواعيد بيننا.

- لكن معرفة الحقيقة، ولو مرة أفضل ألف مرة، حتى لا يظل الشخص يعيش كذبة كبيرة.

.. ..

..هنا يهتمون بالثقافة ويقرأون..

تهمهم الرفاه، فكل شيء مكفول، العمل، الصحة، التعليم، تتنافس الأحزاب لخدمة الناس، أما نحن فقراءتنا مأزومة، وثقافتنا مهزومة وأجمل ما في خيالنا هو الخبز والحرية التي سبقونا إليها بأجيال كثيرة ممتدة حتى آخر أحلامنا امرأة من أحفاد بوليوس قيصر، تنظر إليه بدهشة تراه فيها زهرة برية، لا زالت بكارتها طاهرة، عندها كل ما يتخيله المرء، بحيث يصبح الواقع أهم من الخيال أشاح عنها بوجهه.. لم تغضب لذا فكر أن يعتذر لها عما بدر منه وفكر به يتسائل بينه وبين نفسه عن هذا الحظ الغريب وكيف رتب هذا اللقاء المباغت. لقد حاول الهرب منها في الوقت الذي لم يستطع فيه الهروب من نفسه.

.. ..

.. تحضر إليه "تومية".

- لقد أتعبتك كثيرًا، لذا فإن ضميري يدفعني لكي أبتعد عن خاطرك. فقط حاول أن تتذكرني دون كراهية

- وهل يكره الإنسان نفسه!؟

- هناك شيء رائع يلح عليك، وهو يتساوق مع لحظات الطفولة غاب وابتعد. فلا تبحث عنه..

.. ..

..تتمتم ذاته لذاته..

يعود إلى الوراء مرة أخرى. فما باح به ما هو إلا حديث في ليلة أرق أخرجه من صدره كي يريح به نفسه.. ربما هو طبعه الخشن الذي يحاصره، أو أن سوء الحظ يلازمه.

.. ..

.. إحساس مبهم يجول بخاطري..

هـو من نـوع جديد لـم أعهده من قبـل.. المدينـة مليئـة بالتناقضات العارمـة ، الطافحة على السـطح. أطأ الشـارع بقدمـي، فأحس بقدرته على مقاومة الشتاء، شارع طويل كلما إرتديته صرت أبث له همومي، وأوجاعي. فتخذل ذاتي العديد من الوجوه، المتعبة التي لا زال السكوت يسـكن ملامحها ، وحركاتها بل وحتى تواريخها ، وأيامها التي تذوب في عقارب الوقت.. .. خصوصيتها مجهولة لكنها غير مكبلة..

أتنفس المـكان. يغزوني الحزن المجلل بالقرف. فلقد غاب. وابتعد رجـال يقبضـون على أركان الزمن بـكل تناقضاته يدفعني إحسـاس غريـب لاقتحـام هـذه الصومعـة المبهمـة.. الوقت ينثـر رذاذًا مـارًا نحو الرغبة

- ما يؤلمني هو أنك لست غافلاً عما يحدث كل يوم هنا. وما يحدث أيضًا هناك. فوجع الغربة هنا ، ووجع الفعل واضح هناك.

- الفخاخ المنصوبة في قانون الظلم كثيرة

- لقد طويت ما بيني وبينك منذ مدة فلماذا تعاتبني!؟

- أمـا أنـا فلا أسـتطيع ذلـك. لأنه لا يصلح الوسـيلة السـيئة إلا الغاية النبيلة

.. ..

يقسم لها أن غايته نبيلة.. بعد أن تغزوه الغربة من جديد ، وإن كانت غربـة مغايـرة يفتح قلبـه لهوج الريـاح.. تأتيه الصور مسـرعة على جناح الوقت المخيم الذي يضم أناس الزورق مكفهر الوجه. والناس كذلك. لم يسـمحوا لهم بالتوجه إلى حيث يريدون. يحضر أحد رجال الشرطة.. دخـان مختلـط الأنسـاب يقف أمامـه . ينظر إليهـم وهو ينفـث الدقائق الثقيلة.. الزورق يحمل التجمع البشري البسيط عائدًا بهم إلى قواعدهم الأولـى.. هـا هـو داخـل الزورق يضـع في عينيه سـيدي بوزيـد فيبكي بحرقة ، إنها مدينة بنت له موقعًا في قلبها فأحبها.. يعانقه النوم صافيًا.. وهو يحمل حلمه ووطنه على كتفيه ويعود..!

٥

.. ..

.. بدأ يفكر في مشروعه المستقبلي المقترح..

إنه فرصة لا تعوض حيث بات مقتنعًا بأن ما هو مقدم عليه سينقذه مما هو فيه.. صار يبث همومه، وطموحاته لوالدته، وهو يفكر في هذا الأمر المستجد، ويطلق نحوها فرحًا يشع من نظراته العميقة، لقد أشعرها بأن شيئًا جديدًا في حياته قد بدأ، وأن حفنة دنانير قد تفي بالغرض..

.. ..

يقطف بعض فرح..

وهو يشرب الشاي الرخيص الممزوج بأحلام مستقبل يتمنى أن يكون وارف الظلال يعفيهم من الفاقة، ويجعلهم يتنفسون الصعداء هكذا هي الأحلام الصغيرة، تؤكد أن طقوس الفقراء العائلية حميمة وجميلة.. ولها طعمها الخاص، عندما يدثرها الهوى، واختراق العيون الحالمة المحبة لأحلامها المشروعة داخل البيت، وخلف همسات الأبواب، والشبابيك..

.. ..

.. الأسرة الصغيرة تتداول فيما بينها الحديث، بحب وسعادة..

تتذكر كيف خدشت جبهته السمراء، أظفار الزمان، لكنه لم يبع كبريائه، وكيف حاول أن يهاجر بعد حرق المراكب، والمسافات إلى بلاد الضباب، أرض العسل، الحرية، والعمل ليبحث عن مرساة يلقي عليها رأسه وتحبه عند المساء، وكيف ظلت تحضره، وتحضنه كلما همس البحر لأمواجه، ليؤكد له من جديد أنهم سرقوا وما زالوا من عينيه أمواج الفرح.. .. يؤلمه أنه المهزوم الوحيد..

لأنه لم يستطع ردعهم.. والمأزوم الوحيد هو الشعب الطيب الذي

غيبتـه النوازل فهـزم بالضربة القاضية، من كافـة الجهات التي تطلق علـى الناس، قانون الرعب، والكبت والصمت.. تفلت عبراته من عينيه فيفلت من بين أصابعه حلمه يحزم الضجر حقائبه، ويقف أمامه الحزن، والانتظار حيث يتمثل طلعة أخرى من الأمل تحاول أن تنتصر على خوفه، إنـه الصبر الذي يخترق كل الحواجز، ما يجعل التوجس الذي يرفرف على النهر، يمسـح برائحته قسـمات شـوارع، سـيدي بو زيد، الترابية، ومفـارق طرقها. ومـا زال جوهره قائم في ذاته، ورأسـماله عربة صغيرة عليهـا بقايا خضـار يجرها وتجره، وهو يطوف بها في شـوارع المدينة، لعل هناك من يشتري على الأقل هو يحاول، وما زال يحاول.

.. ..

هـو مفعم بالنعاس، لكنه لا يسـتطيع النوم، هو نائم، ومسـتيقظ، يعانق التعب، ويعانقه في نفس الوقت رغم تعبه، شموخ النفس، والروح. فهـو لا يملـك في عربته سـوى أيامه الحزينـة وبعض الخضـار الذابلة، وأشـطان الشـمس حكايا أحلام ضعيفة تنهشه بحنينها اللاغب، كل مساء أسئلة كثيرة تتثابني لم أجد لها جوابًا:

- إحساسك هذا ينم عن إيمان حقيقي بما حدث وسيحدث.
- هل تؤمن بما سيأتي أم أنك ترفضه؟!
- أنا لا أطمئن لأي شيء يقترحه النظام.
- هذا مؤشر جديد يعرفنا مفاهيم الخروج على القاعدة.

.. ..

.. يقطع شفير الحلم، بعد أن يعصره الطنين الحاد..

يقتنع بحديث الطيف بأن الحلم مهبط رأس الإنسان وعالمه، وعالمه هـو وطنـه.. يرضع ثدييهـا.. وبوح يضـيء حانـات الأرض. فيصبح الندى والتراب نشيد الحب، والأمل الذي طرز الدنيا، والأشجار بالأوفياء من الرجال، عبـر صفـر معرفة، ورؤية عويصة، يـرى كل الكون داخله، يحاول أن يكشـف الغامض، بهدف الحصول على الضالة واكتشـاف المسـتور، فمن حقه أن يعيش وأن يقتل الفقر هكذا وقفت الكلمات

على لسانه:

- يجب أن نحارب الخطأ ولا نخشاه، فنحن نتألم منذ ثلاثين عامًا

- حياتي جوع عذاب، واختناق، ولكن حب هذه الأرض كلمة تأمل، أقولها دائمًا، وهذا حق لي.

- إنهم يحبون بناء السجون لتتسع لكل الناس، لمصادرة الحاضر والمستقبل.

- لكن الحاضر زمن غير موجود إلا في المستقبل. لهذا تتصادم النوايا المواقف والإرادات.

.. ..

...يلتقط رضاب أنفاسه..

يحضره الطيف فيذهب عنه الطنين بعيدًا، يصبح الذهن أكثر صفاء.. تحضر إليه صورتها بعد أن، يستحضرها.. يقارن بينها.. وبينها. يفكر مقتنعًا، بأنه سيظل يفكر إلى أن يصل إلى ما يفكر فيه ألا وهو تغيير كل شيء.. يتذكر كيف عذبوا صديقه الكهل، لأنه رفض المساومة بعد أن أصبح غير قادر على توفير لقمة خبز شريفة، لقد كان الضرب قاسيًا، أظافره، وأسنانه لم تستطع الصمود أكثر، وكأنه قدم إلي هذه الدنيا ليحمل الأسى والعذاب حيث الجريمة دون إدانة والإدانة دون جريمة، وكيف يوضع الحق في غياهب الأوراق، وتنتهك الحقوق والحدود، فلا يستطيع الإنسان إعادة الماضي لأن الحياة لا تسير إلى الخلف، بل إنها كالريح تتجه دائمًا إلى الأمام، لقد ضاع حلمه أمام قسوة الحياة، فصال وجال كي يبعد عن نفسه المسئولية، لكنه ظل واقفًا، ما يؤلمه تلك الاستضافة القسرية، التي تقف بين الموت والحياة، وهاذ ما يُشقي الروح، ويزيد العذاب.. خاصة إذا كانت الحياة مزورة.. يحاول أن يجيب على أسئلة الطيف بالصمت.

- كنت أعلم أن هناك عالم لا أريده، ولا أريد أن أصحو منه بهذه الطريقة..

- عليك ألا تكثر الشرود فالشرود يكثر الأحلام، والأحلام تكثر

الأخطاء

- المحبة حتى الصداقة، لا تشتري ولا تباع بالمال، ولا بغير المال.

- في غمرة الكذب تظهر الحقيقة، وفي غمرة الظلام يظهر الضوء، فإلى أي درب تقودنا هذه الدنيا..؟!

.. ..

.. تبتسم خلاياه النافرة..

يقف شعر رأسه غضبًا..، فتغيب عنه النضارة للحظات، يتقدم جارًا عربته نحو مكانه المتبع الذي تعرفه "سيدي بو زيد" أنظر إليه، وهو يخب في شوارعها.. أحيائها فيتجافي مزيج من البرودة والنار، فهي تقبع في كأس أمامي، أنظر إليه، وأنا أعود إليها. ما زالت تقبع مكانها.. يستيقظ في قلبي الوهن عندما أعود بخاطري إلى ذلك البلد البعيد.. أقطف زهرة فرح، وأنظر كيف تتغلغل شوارعها في أعماقي وذاكرتي الدموية.

.. ..

.. يفكر جيدًا بعد أن يعود إلى نفسه للحظات..

يحاول أن يتحاشى مواجهتها، لا يريد أن ينظر في عينيها، حتى لا يرى وساختهم فيها، فدموع العين تعبير عن جراح القلب، يومها وقفت أمامه، ولأنها تعرف نواياه، صافحته بيد بارده، ووجه ميت. فهو من هذه الجوقة التي لم ولن يتغير لا أدائها ولا أفرادها، يفرك لسانه، فتتراشق الكلمات صارخة، عفية.

- خطأ شائع، أفضل ألف مرة من صحيح ضائع، وما يمارسونه خيانة لكنهم يعتبرونها مشروعة..

- اكذب ألف مرة تصدق نفسك ويصدقك الناس.. هذا هو منهجهم وسلوكهم..

.. ..

.. كانت تجربة مرة، تفتقت كالحلم..

كل يوم أصحو، أرشف قهوة الصباح، أقتات حلمي، أقرأ التقويم اليومي.. أفرك أوراق الذهن، وأنا أنظر من ستارة شباك بات عليلاً،

وأحلم أغط في النوم، أرشف الحلم وأشربه شربًا.. أصحو أبحث عنه بين التفاصيل المعهودة للأحلام.. أمرق بعيدًا عن رجل قليل الكلام. يمر بي هاجس، يحفر صخر السؤال..

- أريد أن أعيش حياة جديدة، تتناسى الماضي تمامًا. فأنا ابن الحاضر.

- لكن هذا شيء من الجنون.

- هل تعرف ماذا يعني ذلك؟!

- نعم، وإذا لم يعرفني الناس، فأنا أعرف نفسي..

.. ..

رغبات مبتورة تحمل على أجنحتها الرغبة والخجل ..، والقرف في غالب الأحيان، فأنت في وطن كل من فيه يعتقد أنه يعمل من أجله، لكنه في الحقيقة يعمل ضده. يستمع لذلك .. يزم شفتيه ثم يشيح بوجهه ويمضي.

.. ..

بات يفكر في من هو الأعلى. النفس أم الوطن لذلك أشفقت عليه مما هو فيه. كما أشفقت على نفسها. لقد ضربت المقادير ضربتها الكبرى، فتحولت من امرأة إلى نجمة تطل عليه وتتأسف له. يتقدم رجل طاغ له قبضة قوية، باطشة.. لكن نفسه خاوية، أنس لها، فلم يمهلها ولم يمهل نفسه بل أراد أن يستزيد حتى لحظتها الأخيرة، صار يحرق جسدها بنظراته الملتهبة، أراد أن يغتصبها بزواج ترفضه، بعد أن غاب الوطن عن ذهنه، فكيف تستطيع امرأة أن تعيش دون رجل.، وكيف يستطيع أن يعيش دون حب؟!.. يعيد إنتاج الألوان يحاول ربط الحبل السري بينه وبين وطنه.. رهبة تجتاح المكان جعلته لا يجهر بالكلام.. فاللسان لا قيمة له في الكثير من الأحيان، يفكر لماذا يلدغ الإنسان من ذات الحزن أكثر من مرة.؟! ينطلق سيل من الكلمات، يحمل جملة من الأسرار والرؤى.

- عندما تفتح بوابة الموت، يتضح البون الشاسع بين حب الذات،

وحب الوطن.

- المـرأة تحـب ابنها وذويها. لأنهـم قربان الوطن. إنـه الحب الحقيقي الذي لا يُفضى إلى الخديعة أو الخيانة.

- نحـن نحيـا علـى حافة الموت، وكي تنتصر علـى ذلك، افتح قلبك وابحث فيه عن وطنك.

.. ..

.. يطلق حيالها حبًا من زمن البراءة والأحلام الوردية..

لذلـك لـم يصعـب عليه الأمر، رغم بشـاعة ما يحدث. فلقد سـال دم الكرامة على الأسفلت، لهذا كانت السقطة موجعة.

.. ..

.. حالة فراغ نفسي تجتاحه..

جعلته لا يسـتطيع التعرف على نفسه.. رآها فتغير للوهلة الأولى لديه كل شـيء.. هـا هو يفتح بوابة الحزن الذي ذهـب به إلى هناك فهما من تلكـم الأرض التـي تنتظرهما في نهاية الطريـق الذي لا يعرف إلى أين سـيذهب بها. فهما معًـا، يود ان أن يظلا معًـا. لا يعبث أحدهما بالأخر لكـن كل منهما لا يواجه إلا نفسـه، لأن كل أمـر يوصل إلى الآخر.. المرأة والوطن..

.. ..

.. الصبر وجع الفقراء وحلمهم الجميل..

والصمت سـيف يطيح بالطهر والعفة، كونه يفر كثيرًا من شـلال الذاكـرة، أنظر إليه يسـحب عربته المتهالكة. يدفعهـا للأمام مرة، وهي تسحبه للخلف مرات.

.. أسقط من مداري..

فيذوب في حمى اللقاء الذي يوحدنا.. لقد ظل هواه مدججًا بالحلم، والحمى، والوجع المضرج باللظى. تسافر الحيرة في دمه، يرشف حناء البرقوق، فينتعش دولاب السؤال دوائرًا على الشفاه.

- أنا لسـت صديقًا للنسـيان، فكيف أستطيع أن أقدم للناس حكمة الآخرة!؟

- السجن جميل، لو تركوا حلمي يحط على نافذتي، لتصبح حياتي أرجوحة مربوطة بأحابيل الصمت.

- الحياة مليئة بأسرارها، وأنا متأكد أنك ستجد هذا الذي تبحث عنه، وتريده، فالحق لا يوزع نفسه، بل يوزعه الآخرون..

- لا تنقل هذا الوباء وتنشره..

- ما أعرفه، هو الذي أريده، ويريده الناس إنه جزء صغير من الحلم الذي كنت وما زلت أحلمه.

.. ..

.. ينظر حوله، يؤلمه ما يرى..

رجل مصاب، بزهيمر الرؤية.. ينظر حوله، يحدق.. يتفرس.. ينظر بقوة بهدف التصدي لمشرع موت معين، وكل ذلك من باب العناء، والرؤيا المقبولة.. وهم يستبدلون المؤجل بالراهن. ففي الكثير من الأحيان يكون العاقل هو الضحية..

.. يحقق بالحلم ما لم يستطيع أن يحققه في الواقع..

ها هي تندس في فراشة لإقناعه.. سكب في لحمها نعناعه السائل، كفائض قيمة لحب من طرف واحد.. ، يسترد لونه في أتون حكاية أنهكتها الغربة، والبعاد. ففي الحكاية غرابة وفي الغرابة تشوق، ورغبة في الاستمتاع..

لقد أعلم الجميع بأنه لم يشعر في حياته بيقظة كهذه اليقظة فقد عاد إليه وعيه الذي فقده زمنًا طويلاً فالإنسان عدوما يجهل، وأحيانًا عدومًا لا يجهل، رجته أن لا يفعل فعله بنهاية الحكاية التي قامت بينهما.

- أفعل ما تقول، ولا تقل ما تفعل، وأحذر، فقلبي جرح لن يندمل.

- ما يحدث تشابه في المواقف والأحداث والزمن بعض سلاحنا..

- قد تطعن الحقيقة وتكتم أنفاسها فلا نجد إلا الصبر مفتاح الفرج.

- أنا المطرز عشقًا في هواها، لا يهمني إلا مبادلتها المشاعر.

- مبادلة المشاعر شيء، والغفلة شيء آخر.

.. ..

فتح باب ذاكرته، بعد أن هجع الجميع وظل وحده اليقظ، ولأنه يمتلك هيبة دون سلطان، ، بدأ يفكر كيف يتصدى لما يعتقد أنه مشروع موت معين، فعند التفكير في مواجهة الموت، تكشف النفوس ما بداخلها.. لقد أحبها، بعد أن حبسها خلف رؤاه، وأفكاره، لم تعد تعرف أحدًا إلا هو.. يغضب من أجل ما يسمع ويرى ، فقد ألف ذلك كثيرًا.. لذا يتأسف لأنه يحب وطنه بقدر ما ينكرون هم ذلك. تنظر في وجهه فتتأكد أنه لا يشكل سوى حكاية واحدة..

- أنا غير غاضب منهم. لكني غاضب لأجلهم، لأني لم أعد الماضي، بل أنا المستقبل.

- المرأة تحب من أجل أن تتزوج أو تتزوج من أجل أن تحب. كما هو حال الرجل يعمل من أجل أن يقف على قدميه، ويقف على قدميه من أجل أن يعمل.

- هذا الظاهر فقط بالنسبة لي ربما لكن الغير يفهمون ذلك بشكل مختلف.

.. ..

يربط بينهما وبين الأرض التي أحبها يجر عربته.. ويظل سائرًا.. يتألم كثيرًا..

وهو يرى العيون تراقبه، عيون متلصصة، وأحيانًا ساخرة، لقد فتح باب ذاكرته. بعد أن تركها لمدة طويلة. حكم فاسد مصاب بتصلب الشرايين. أضفى على الحقيقة بقايا رماد يعقد الحاظ حلمه بموت يعتقد أن الموت ينتظره في نهايته، لقد اختفى الحلم عندما ضربت المقادير ضربتها، الكل في حالة انهيار، وحدها صورة الزعيم، هي التي ظلت صامدة.

- هو لم يقاتل من أجل البقاء، بل من أجل الخلود.

- لا أحد يريدنا، وكأنه فرض علينا أن لا نستمتع بالحياة "بايات"

يحرقون العصافير لا يحبون الحياة.

- لماذا تعارضني. أريدك أن تسمع وتصمت فقط.

- ستجدني أكثر من حمار..!

.. ..

ما زال يجر عربته، ، يتألم أحيانًا وهو يرى خضاره تذبل. يعتصره الألم.. يختزن حزنه في قلبه وصدره، فلم يعد يفتح فمه إلا عند طبيب الأسنان. كثير هو الحديث الذي يلاحقه كل يوم، وهو يجر عربته.. جمل كثيرة لا يستطيع أن يحبسها أكثر، لكي لا نظل خنجرًا ثقيلاً حادًا يضغط على قلبه، ويقطع شرابينه، لذا يؤلمه كل شيء يمكن إصلاحه، بل وتغييره..

.. ..

يحضره العطش.. يحتاج إلى تهيئة ذاته، يجب أن يعيش الإنسان آلامه الكبيرة وحده. فكل شيء بثمن، المهم هو تحويل القبح إلى جمال، يحدق في الفضاء تسرقه ابتسامة طالما ابتعدت عنه، جعلت قلبه ينكسر، لقد جاوز التضحية إلى الموت في سبيلها.. منذ ذلك الوقت. تحول كل شيء إلى كابوس. أصبح ريقه مسدودًا بالأشواك في وطن تنساب من زرقة العيون في جداول الحب، ومن جانب أخر للمخدرات فيه دورها الكبير في حركة التاريخ أكثر بكثير من الحروب التقليدية..

.. ..

.. بكت وحشة لأنها تعرف أن أعظم قصص الحب والثبات، تبقى داخل الإنسان، إذا كان يغار على حبه أكثر من نفسه هذا هو الحب الأكيد.

- المهم تحويل القبح إلى جمال.

- لكن لا كرامة في الحب.

- لقد كسرت كرامتي، وانتهى كل شيء.

- هناك من يعتبر كرامته في المال، ويتعود على ذلك بسرعة، بل أسرع مما نتصور.

.. ..

يحدق وصمته في الفضاء، يهرب منه الكلام.. فيهرب من نفسه فهو يعرف أن الوطن جميل بأهله ومشاكله.. يذكر ذلك ويعرف.. أن العديد من القضايا والأمور تأخرت كثيرًا صار يقيم في الزمن يحتار فيما يشاهده، يشحن ذاته بالموجز الملتهب.. وهي صارخة تقف في المقدمة مكونة لحظتها التي تذوب بعد هذه اللحظة، فلقد بانت الحقيقة، هي أمه التي رتبته يحس بها، وكأنه يراها لأول مرة..

غيمة من نعاس تتقدم زهرات جنائن خجولة. وهج واسع العينين والفرقات، يعانق ثوبها المطرز الذي يحكي أوجاعه فيسيل هواه الأخيلي، عيناها تمتزجان بالتراب الأرضي. يقف الليل على مخدة لغيوم اتكأت عليه الحكايا المسافرة. في الأفق. أقمار محجلة تروض النخيل، لا تريد أكثر من الممكن.

.. يوم صباحي يدندن في المدى. يرسل قصتها لكل المعمورة.. وفراشة ترقص في الحلم الأخير، تخفي طفولتها بثوب شعاعها.

- لا أؤمن بالنجوم، ولكني أحب الفأل الحسن.

- المرأة تحب أن تتزوج، وتتزوج من أجل أن تحب.

- وحدها القبل فقط تعطيك عمرًا أفلت منك. وحده الوطن يعطيك حبًا فيظل لصيقًا بك.

.. ..

تصرخ في وجوههم. دعاهم أن يتركوا حسم الأمر له وحده، أو للأجيال القادمة. يتألم لأمه تخرج من جلدها من أجل قضايا عتيقة، تترك صمتها في زمن السرطانات رغم قدرة هذا الزمن على التغيير الكمي والكيفي.

.. يهمس لذاته..

قد تخفي عنه بعض الأشياء، ولماذا لا يكون لها ذلك، ربما هي لا تريد أن تبوح بالكثير، لكنها تريد أن تعرف كل شيء، ألا يجوز لها ما تخفيه خاصة، وأن لكل شخص خصوصياته وربما أيضًا لأن القيم

تتهدم أمام المصالح.

- هل رأيت رجلاً يهزم، وهو يقاتل لكي يموت.. ؟!

- هكذا هو حب الوطن الحقيقي. إنه الحب الذي يشتري بالمال.

- الرجال مواقف وشرف الرجل كلمته.

.. ..

.. الكحل يطرز حزن الأرض ببكاء أخرس..

يحياه بين أهداب البكاء.، وهو يجر عربته كما اعتاد. يمسح عبر البحر الطويل غباره. رجل تفوق على زمانه. يطلق جملة هوى وحكايا من فوهة جرحه، وأرض تلد من زيتونها رجالاً يعرفون ويؤمنون بأن الوطن حق أصيل للفرد ، لا يمنح ولا يُمنع.

.. يناجي عربته..

يقارن بينه وبينهم، وكيف كانوا يسرحون في المطاعم الفاخرة، ويختالون في أرقى الفنادق، كان هو وأمثاله يأكلون التراب، يعرف أن العار في الفقر الذي يعتمل في النفوس، لذا لا بد من إسقاط الغبن، وحتى لا تكتم أنفاس الحقيقة.

- الجامعة مصنع يعيد إنتاج الأيديولوجيا.

- إنها ديمقراطية الحجاج القاتلة إذا تكلم قتلناه، وإن سكت مات بدائه.

- السياسة هي أن تعرف السيء من الأسوأ.

- لقد ضيع عمره في انتظارها. ولا بد من قطف الثمار.

.. ..

.. حمامات بيضاء واقفة بين المروج..

تعرف أن الفقر آفة المجتمع، لأنه هو الذي يؤدي إلى خلل الميزان الاجتماعي.. عائلة مسحوقة في بيت يصفق للفراغ، كل شيء فيه يتلاشى ويذبل.. بيوت متلاصقة تمسك برقاب بعضها البعض، إنه ابن هذه المدينة التي اخترقته بحبها وتاريخها ، فيها كل مساحة صوت وكل كلمة فكرة، الحياة فيها لأناس سلبياتهم أكثر من

إيجابياتهم.

.. ..

.. تعود إليه ذاكرته..

يحتضن قطعة من أنفاسه المتلاحقة، وتأوهاته التي تملأ المكان، تبتسم في وجهه كالعنقاء التي تنطلق من رماد ماضيها.. ومدينته الصغيرة ما تزال صغيرة تعانق الحوض المنجمي، وكأنها خرجت للتو من الماضي. يمتلك هيبة دون سلطان.. هو يعرف أنه في هذه الليلة ينتهي كل شيء .. أراد أن يغتصبها بزواج ترفضه، بعد أن اغتصب مستقبلها، لذا بات عليها أن تموت وأن تقدم أبنائها قربانا لتحررها.. هنا رجل تشرد في العواصم حاملاً خبر المنافي، يعرف كيف ينتصر الحب، بعد أن تتكسر الحواجز، ويعرف أن الفرح لا يدوم، كما الحزن كذلك. يقودنا إلى حيث نجهل. الدول المجاورة.. هي أيضًا تعاني. لا فرص فيها للعمل، بل هي ضيقة على أبنائها.. هكذا حدثه أصحابه، يحاول أن يطلق عليها موجة انتقام، لكنه يتراجع في اللحظة الأخيرة، لذا لعق صفعته، وذهب يحمل على كتفيه همًا كبيرًا، لكنه ترك خلفه همًا أكبر، إنه القادم من خلف الغيم، وهو يتمثل توقيت الحرية، بتوقيت شوقه إليها.

.. ..

.. ابتسامة حنان، وكلمة جميلة..

فإلى متى تحرق الكرامة، ولماذا..؟

الأرواح البشرية توقد بين الجدران، يتساءل كيف تفهم الكرامة عندما يكون المتنفذ بمزاج سيء.. وهو يسحق ما تبقى من فرحة مهشمة مفترضة. في حواره مع السكوت العميق، يمتلك الكثير من السعادة التي تتخطى معنى البقاء في الحياة التي يعيشها، وأم لا تحمل هم الإجابة وإنما فقط هم الدعاء، وحديث الصمت.

.. ..

.. امتد يفكر فيما يجب عليه فعله..

لقد توصل إلى قناعة بأنه إذا كان هناك خسارة ما، فإنها ستناله وحده، أما إذا جاءت الفائدة، فإن الجميع سيحظى بها، فهو بقلبه يرى ما لا يراه المبصرون. حكايته لا يهتم بها أحد، رغم أنها تثيره، وحده، إذ أنه عزم على أن يثأر للماضي بكل ماله، وما عليه.

.. يتألم الهواء..

بحات قصيرة تطغي على اللحظات التي تقبض عليه من تلابيبه، علامات تنبض رموزها بين لحظة وأخرى، كحالة محيرة بين الضوء والعتمة، تجعل من هموم الدنيا، قصة خاصة، ومتوهجه، تصفع إمكانية عدم السكوت، والصمت المدقع يذهب إلى خلف الأحياء المتميزة، يعرف جيدًا أنه ليس من العيب جر عربة القمامة رغم أن ثقافته ترفض ذلك، إنه يخشى أن يراه أصحابه مع أنه ليس هناك عيبًا.. تحضر إليه والدته.. يشكو همه إليها، كما كان يفعل دائمًا فالحوار ضروري في حالة كالتي تنتابه، لأنه يساعد على استلطاف النفوس، بل وضبط العاطفة بالحق، ومع الحق. وهذا عين الصواب وجوهر المعرفة..

- كل هذا لك يا أمي، فكل دمعة تفارق عيوني، إنما هي من أجل عيونك.

- أنت من قلت أن العمل ليس عيبًا، وليس له علاقة بالوقت أو المكان أبدًا.

- لقد مارس وعي التراجع والانحدار ووضع قدمه في ملف الزمن الحميري.

- لكن من يرفض المساومة على مبادئه، لن يخون العهد.

- المهم أن يكون هناك مردودًا ماديًا، فلا دخل لنا نعتاش منه، والحياة تحتاج إلى الكثير.

.. ..

يتماوج ذهنه بين الصمت والانطلاق، يتقدم تتقدمه رؤيته، فيعود أدراجه إلى الوراء لقد تعب من أجلها كثيرًا.. صار يهرب من الماء،

ويحتفي بالرمال المفككة التي عرفت قدميه لمدة طويلة، ولكن لا بأس، فالوجع لفترة واحدة أفضل ألف مرة من الألم المستمر.

.. لقد سقط كل شيء في الوطن..

عدا صوتك يا أمي الذي ظل كقطعة ناتئة، محفورة في أعماق الفؤاد، لقد علمته الريح، الجفاء والجوع أن يبحر في فقره وأن تقرأ في خارطة الشوارع والأزقة أسرار التعب، والأخطار التي قد تنتابه في كل لحظة...

.. ..

.. جدار محصن أمامي..

وخلفه شذى غيمة تائهة تنسج مستحيلاً بزوبعة الهبوب، شظايا صمته نار في سكون الليل، يتجاذب زيت وهجه المقدس والنار في مبسمه تسقي زهوره الذابلة هوى لدودًا يدفق فيقشرها بجنون هواه. يعرف أن من يسير في طريق الخطأ لا يحصن الخطأ، الزمن ينسى الألم.. يخفف الدموع تحدق في وجهه شمس "سيدي بو زيد":

- ما الداعي لجعلي أهتم بها هكذا. هل هو الخوف منها. أم الخوف عليها، أو لربما هو الفضول إنه أمر غريب هذا الذي يحدث.

- لقد عملت هذا من أجل الوطن، بعد أن أصبحت الحياة دون معنى، حيث تستبين الرحمة في الانتقام.

.. ..

تلتحم البراعم والأشواق، تبكي غدر الزمان، فلم يعد للحب والوفاء مكان بعد اليوم، هكذا قال لنفسه بعد أن صفعته الأيام، ولسعته بقسوتها، إنها تتألم.

- العاقل يتجاوز الأمور، ويبرر الأخطاء للآخرين، إنه يوجد الأعذار للناس، ويسامحهم، ثم يوجههم إلى الطريق القويم!!

- لمصلحتك يا بُني ابتعد عن المشاكل. التقط رزقك بما تيسر، أي شيء يكفينا.

- يا أمي أنا لا أذهب سوى إلى الأماكن العامة، يجب أن أبيع ما لدي

من خضار، حتى لا تفسد.

- لن أترك هذا المكان، وأبحث عن مكان آخر، لأن لي خصوصيتي وأرجو أن تحترمي هذه الخصوصية.!

.. ..

.. يتدثر بحلم ونجمة..

.. تحلق فوقه غمامة..

يراهن أن حلمه لم يعد حمامة مكابرة، الحلم الطفولي البعيد الذي مضى وبات من المستحيل تكراره، لم يقتل في دواخله أملاً يواجه العراقيل، ولا يموت. هكذا ظل يلف أيامه بطموحاتهم، وينثر أشواقه بينهم. حاول أن يترك همومه وأشيائه، وينسى تلك الأشواق التى عاقته لمدة طويلة، بعد أن ودع الراحلين بصمت، وبعد أن اختفى الكثير من الأشياء الجميلة .

لقد غاب الإحساس بالزمان والمكان لذا صار يتساءل.. لماذا كلما يموت شخص ينزل المطر..! وكيف سيتخلص من هذا المقت؟! ورغم أن القهر لن ينتهي أبدًا ، وأن الوعي والفهم ليس له علاقة بالفقر، والغنى وحتى الحرية. إلا أن السكوت نوع من الخطأ بل هو جريمة لا تغتفر.

- عذاب القهر، نوع من الغربة، وهو أصعب من كل شيء إنه صورة للألم الحقيقي.

- إنهم يقهرون الناس بالبساطير، والمال. يعتبرون أن هذا حق لهم، لكن إطلاق الهواء هو الحرية، والحرية هي المكسب الحقيقي.

- السطوة الحقيقية لمن يملك أكياس المال. التي تقيد الأفواه، وتدوس الرقاب.

- لكن الإرادة هي المرجل الذي يحرك كل شيء.

.. ..

يهاجسه الطيف. يسيران معًا على شواطئ "تونس" العاصمة..، ثم يشربان شيئًا في مقهى باريس" بشارع بورقيبة.. يعيده رذاذ القهوة إلى ماضيه القريب.. تحاصره الأسئلة.

تصيبه الحيرة، لا يدري كيف يجيب فليس عنده ما يخسره، ولكي يكسب ثقتهم صار يتعلم كيف يصيب الهدف. لا بد أن يعمل ما يريدونه منه إنها العلاقة بين السالب والموجب، لقد ظل خائفًا..، يحاول أن يتخلص من هذا الفزع.. وذلك الرعب الذي يضغط أعصابه، بعد أن صار يعتقد أن النهاية قريبة .. تحضر أمه فجأة تنظر في وجهه.. تعيده إلى واقعه.

- لقد كان حلمًا مرعبًا يا أمي.. أنا تعب جدًا.
- استعذ بالله من الشيطان يا بني إنها أضغاث أحلام.
- إذن لماذا يلازمني دائمًا؟
- إن ما يصيبك مجرد إرهاق من شدة التفكير.

.. ..

.. عجوز اخترقت السنوات وجهها النخر..

نجمة عتيقة حالمة تهتف في الفضاء للزمن الجميل، تضم مشاعرها في صدرها، تحدق في وجهه. تمسح قسماته بعينيها، تبتسم وهي تقارن بين فريقين.. نسائهم مختلفات عن نسائنا وكذلك رجالهم. كما أن أحلام الفقراء التي تمتزج بتراب الأزقة، تشق الأرض باحثة عن فجر جديد..

.. امرأة مؤمنة لا تحمل هم الإجابة..

وإنما هم الدعاء، ، وفتى يافع أرضعته حليب الكبرياء التي حملها حتى النهاية لم يمتزج بورد أو غار، لكنه ينتعل قدميه، ويجر عربته كل يوم مرة.. وتجره هي عدة مرات.

- منذ متى وأنت تتعامل مع هذه العربة، وهل تفي بالغرض..؟!
- منذ وقت ليس بالطويل كما أنها تقتل الوقت.
- لقد علمت إنهم يلاحقونك. ولا يريدون منك الوقوف في أماكن معينة، بل قيل لي أنهم ضربوك.
- هذا صحيح. ولكن ما العمل!؟
- فعل كهذا يجب أن يجرم، ويعاقب فاعله. كيف يكون ذلك.

والخصم هو الحكم، يا سيدي من فعل ذلك إحدى فتيات هذا الوطن الجميل، وإن كان فعلها أسوأ ما في هذا الوطن.

.. ..

يستقل قطار الماضي البطيء وصولاً إلى محطة ما حدث. يتأوه وهو يتذكر كيف لطم خده كفها بقوة.. لذا أسقط في يده.. ما زاد من ألمه أنها رقيقة كالنسمة، طرية العود، خمرية الوجنات كعرق الورد الأخضر، أوعود الند. لم يتوقع أحد أن تقوم بذلك الفعل المشين لقد مرت على طريق طويل من المتاعب، السكن، التدخين، الغياب، وأشياء أخرى كثيرة عبرتها، وكأنها في حالة غياب. هي لم تدري لماذا فعلت ذلك، وكيف فعلته؟ حتى الرقيب الذي أصدر لها الأمر رجل وطني كغيره من أبناء الوطن ولربما أكثر من غيره، لكنه خاضع لاعتبارات ينفذها وإن لم يكن مؤمنا بها.. إنه موظف ينتظر راتبه الشهري. كي يعيش، ويقدم التزاماته الحياتية اليومية له ولأسرته هذا ما حدث.. وهذا ما جعل اللحظات تقف رافعة مناقيرها إلى السماء لالتقاط أي خبر.

- فتاة جميلة وردة متحركة، كيف تفعل ذلك!؟

- وهل تعتقد أن فتاة جميلة مثلها، تفعل ما فعلته رغبة منها، إنها كما أعتقد كبش فداء.

- لماذا تعتقد ذلك؟

- لأنها من أبناء هذا الشعب الطيب.

.. ..

.. جنون مطلق لا يعرف الحدود..

الألم النفسي الذي يحس به هو ما يؤلمه.

حسرة خارجة من القلب تنتابه تعشب أوراق كراهيته، رجل يخضب أحلامه كل يوم. داخله ممتلئ بالقهر والغضب، لكن ابتسامتها الأحلى والأجمل هي التي علمته إلا يستسلم.

- لا أستطيع يا بني أن أقدم لك شيئًا لأنك تعرف إمكاناتي البسيطة أكثر من أي شخص آخر.

- فقط أريد منك الدعاء، ومني الصبر الإرادة، والمثابرة، وكلها أمور مهمة تجعل الأخطار دون أهمية.

- هذا أمر جيد، ولم يعد غريبًا، قد يطول الأمر، ولكن لا بأس.

- أرى يا أمي أنني لم أعد من الماضي ولا الحاضر، بل أنا المستقبل لذا قررت أن أتقدم نحو الخلود.

- لك دعائي، وأتمنى لك التوفيق.

.. ..

.. سيل من الكلمات وكأنها فزاعة الحقل..

تحمل جملة من الأسرار والرؤى يحاول أن يجيب على أسئلتها بالصمت، فلقد تعب الناس من الحديث، وتعبوا من ذكر الموت لأنهم يعشقون الحياة، لذا يروي همومه بعينيه وهو يجر عربته، وينظر تجاه البحر، يشكو له ظلم أهل البر.

- إلى أين يذهب بك هذا الطريق!؟

- وما شأنك أنت بذلك، إن كان الموت ينتظر الإنسان في نهايته.

- كلاكما يعبث بالآخر، وأنت لا تواجه إلا نفسك، في هذه المرحلة.

- لقد قفزوا من خلف السياج حتى أخر الشوط.

- أنا وأنتم من هذه الأرض لهذا عندما سقطت كانت سقطتها موجعة.

.. ..

في ميدان "سيدي بو زيد" تقف "تونس" على قدم واحدة تعاني من الاستبداد والتصحر السياسي والمعرفي، الناس يعيشون على الهامش، يقفون بين حافة الموت وحافة الحياة، ويموتون كل يوم ألف مرة. أنظر إلى ما يحدث، فأتذكر ما حدث أستغيث من نفسي وأشكوها إلى نفسي التي لم أعد أستطيع التعرف عليها، يومها أصبحت لغتي شائكة، مما دفعني للذهاب إلى البعيد أنا والكثيرين غيري، لقد كان معنا.. تحدثنا كثيرًا. لقد وضح لنا، كيف أنه تحت وطأة التعذيب، وهذيان الوجه والشفاه، لم ينسى ما حل بالأهل والشعب والفقراء منهم بالذات

ومـن هنا صار اللسـان لا قيمـة له لدي، ولدى الكثيـر من الناس. وفي غالـب الأحيـان. لقد صمم على خلـع قناعه، مؤمنًا، بعـد أن صار على قناعـة تامـة، بان الفعـل هو الأهم، لأنـه الأكثر حسـمًا، صار صمته الراهن مدويًا.. ينسـى ما يحيط بالبلاد من عصف، وهو يرى ما يحيط بها من عذاب..، لقد أنيط اللثام عن ثوب الخوف والرهبة. فهي ممعوسة منذ أن ولدت وحتى موتها، لقد أعاد هذا الوعي، وعيه الذي فقده زمنًا طويلاً.

.. ..

.. بعض قلق يستبد بي..

المسـتقبل يحمـل ملامـح الغمـوض..، لقد صـار أكثـر صلابة في مواجهـة المصاعـب، كلمـا هـدأت المشـاعر، والحكايا شقشـقت أحـلام العصافيـر، ومنحته رجاءًا كاذبًا، بعـد أن صار له موقع آخر، فالرجال لا يُعرفون بأفعالهم عند بعض الناس، هكذا كان الأمر وما زال، بل بأموالهم، وهذا ما يؤلم. لذلك مهما كان الإنسـان صريحًا. لا بد له أن يترك شيئًا يحتفظ به..

.. ..

.. تحت وطأة التعذيب..

.. وهذيان الوهم..

أبطـال مجهولـون هم فـي الكثير مـن الأحيان، أهـم آلاف المرات من الرجال المشـهورين. وكل منهم لم ينسـى ما حل بالأهل والشـعب، والفقـراء منه بالذات، الذيـن يعبدون بدمائهم طريق التغيير. فالشـعب دائمًا أكبر من حاكمه، وشـعب اسـتجاب له القدر، لأنه أراد الحياة. لقد توحد الناس فرحًا، بد أن توحدوا غضبًا.

- الجحيـم قـادم أيها الناس، من يهرب مـن الموت يلاقيه. ومن يذهب إليه تكتب له الحياة.

- أنا إن هلكت. هلكت وحدي، وإن نجوت أنقذ الجميع..

- ماذا يعني ذلك، وماذا تقصد!؟

- أريد أن أتقدم للخلود.

- لكن الميت لا ينقذ الأحياء.

- بلى. فالنار نور مضيء في بعض وجوهها. كما أنه لا يضيرها كثرة الحطب.

.. ..

.. ضجة صامتة ترتفع شيئًا فشيئًا..

.. وهي تلملم أردانها..

صوت باهت لرجل لا يعرف ذيل البغل من عنقه. لم يقرأ التاريخ ولا يعرف أن حركته أسرع بكثير مما يتوقع، لذلك عندما انطلق فحيحُه النكر، جاء بقرني حمار.. "أنا فهمتكم.. فهمت الجميع ، البطال، المحتاج، السياسي، اللي يطالب بمزيد من الحريات.."

جمهرة الناس تطلق تعليقاتها المتباينة راجية وساخرة.

- الآن صحوت، الآن صحوت فقط، وقد كفرت بهذا الشعب الطيب ، الآن وبعد أن سبق السيف العدل..

- يقولون أن الأموال المصروفة تسدد كل ديون البلاد ، وتقتل البطالة ، إن هي وظفت توظيفًا سليمًا.

- لقد كان تعاقدنا مع الخوف تعاقدًا صارمًا ، ملزمًا ، لم نملك معه سوى أن نثرثر بصمت.

- لكن السواتل لم تفارق وعيها ، لأن لها ثقافتها ، إنها لغة الأطباق الطائرة، والدشات.

- الآن اتضح لنا مفهوم الوطن أكثر.

.. ..

.. يتخطى الطيف الحضور..

يستمتع بالحوار الدائر، وهو ينتقل من مكان إلى آخر ومن تجمع إلى آخر.. رجل جلل رأسه البياض الجميل.. يعتصره الفرح الممزوج بألم الماضي. لقد اعترف له صديقه الوحيد ، أنهم عذبوه وكيف فقد رجولته منذ عشرين عامًا ، حيث قضى منذ ذلك الوقت، إنه موته الحقيقي. لقد

كان آخر الرجال في زمن الخصاء.. بعد أن افتقدها لزمن نثر لكماته مـارًا نحو عينيها. ماسـحًا بها رغبته التـي حضرت بقوة، التي كان يود لو استطاع امتلاك بعضًا منها في شبابه.

- " فرصتكم أيها الشـباب التونسـي، أن تقدموا لتونس ما لم نقدمه نحن لأننا قد هرمنا. من أجل هذه اللحظة التاريخية"

- اخلعوا قلوبكم.. وأطلقوا بهجتكم، لقد أغواني النور، وأسكرني. لقد أطلقني الهوى. وها هي النجوم بدأت تتراءى ببابي.

- " إنحـس فـي روحي، وليـت طليق حر، والشـباب يتكلم أي كلام يعبر عن آرائه، الثورة مش أكل وشرب، الثورة حرية هي تعبير عن اللي في صدرك، مش مناصب، مش مكاسب، ولا تشترى بالفلوس، تدفع مصاري تأخذ حرية، لكن هذه الحرية دون مصاري.."

.. ..

.. الوقت يلبس ثوب الانتظار المعذب..

يسـير وئيـدًا بيـن العقـول والعيـون.. السـاعات تأتي بـرذاذ موجاتها أحاديـث شـتى.. تتأسـف كيف يهتمـون بموتهم في سـبيل بقائه، وهو الذي أطلق رذاذه الفاسد، الذي رشق به وجوه البسطاء، الذين أصبحوا لا يرون الشمس، رغم اشتياقهم لها. لقد باتوا يعرفون أن من يريد الثأر مـن الموت لا بـد أن يلازمه الكثيـر من الحب فهناك فـرق بين الموت والمـوت الجميـل. كما أن أجمـل أنواع الحب، إرث يأتيـك، ولا يأتيك وأنت تبحث عن شيء آخر.

.. ..

.. الصباح يجأر بقوة..

إنه ملء الحناجر والعيون، ويعرف كيف نمارس كل شيء في حياتنا اليومية، ونريد من الناس أن يسطون على جثثنا، ولا ندري كيف ومتى يقصفنا الوطن بحبه الذي يرتفع منطلقًا بقوة تمتلئ بها الصدور.

- حماة الحمى.. يا حماة الحمى هلموا هلمو لمجد الزمن.

لقد صرخت في العروق الدما: نموت ، نموت.. ويحيا الوطن...

موطني.. موطني.. الجلال، والجمال والسناء والبهاء في رباك
والحياة والنجاة، والهناء والرجال في هواك.. هل أراك
سالمًا منعمًا، وغانمًا مكرمًا هل أراك، في عُلاك.. تبلغ السما
موطني. موطني.

- كافر من يدين موتك.. أو ليس في الموت حياة !؟
مباركة عربتك التي أكدت عروبة طينتها وإنسانيتها.

- لقد أصدر بجسده بيانًا سياسيًا لإصلاح البوصلة، بهدف توجيهها إلى الطريق السليم، وإلغاء الانسداد العربي الذي أصبح عمره أكثر من قرن حيث السكون والعطالة..

- إنها "تسونامي" عربي صارخ.
- من أنت يا سيدي!؟
- ألا تعرفني.. أنا الدغباجي..
- ومن لا يعرفك.. لكن لماذا حضرت إلى هنا..؟!
- لقد تجولت في كامل البلاد. وشاهدت الكثير مما أثارني.

.. ..

.. يبتسم ثم يواصل..

جلست على مقاهي، الجبل الأحمر"، شربت الشاي الأخضر الثقيل، مع بحارة، قرقنة"، ذهبت إلى وادي الجريد، تجولت في "الوناسية" آلمني ما رأيت. فروقات واسعة بين الناس، هموم قاتلة تخنق البلاد والعباد.. أنا لم أقاتل من أجل ما أرى، لقد ناضلت ونذرت عمري من أجل أن يكون الجميع شركاء في هذا الوطن، وإن البلاد فيها من يصنع الثورة.

.. يجلله شجر الضوء..

يخرج من وجهه نورًا قدسيًا يشع كل ما حوله. الرياح، أوراق الشجر، وشعاع الشمس، تنقل الأخبار عبر الدروب إلى كل الشوارع والحواري، هو يعرف أنه سيموت قريبًا لكنه سيعيش طويلاً وكأنه كان يأمل أن يمتد الحلم من جسده المحترق إلى هشيم رأس الوطن. وذلك بهدف

التصدي لمشروع موت معين من أجل الحياة.. "البوعزيزي" حالة إنسانية شديدة الفعل والحساسية، لمن ألقى حجرًا في بحيرة راكدة جعلت من الصيد غابة، ومن الصياد فريسة.. أرض فيها الحرية قادمة لكل الناس، الفقراء، وغير الفقراء، وفيها أيضًا من الثورة..

.. ..

.. صمت مدقع يتلوه الكثير من الحديث الهامس..

أوراق ناصعة تقف على شاطئ الذكريات القريبة.. الرياح تصفر في الدروب، لا زالت تصفر، تهمس في الآذان، ثم تحدق في العيون..

- لقد طرز اسمها على سطح النجوم بعد أن أمدَّ الورد من رائحة دمه لونه.

- حرقه لجسده، لملم وضعنا المبعثر في الطرق، وهذا ليس من أجل التخلص من الفقر، بل من أجل قطف الكرامة..

- وأين دفنوه؟!

- في قلوب الناس.

.. ..

.. يسير الزمن على قدميه بتؤده..

ساعة واحدة قد تكون أطول من نصف قرن مفعم بالذكريات التي تمحو الألم بالأمل.. كان السطر الأول في حديثه دائمًا، الصبر.. والصبر فقط لأن الزمن كما يقال جزء من العلاج

.. ..

يلف هواه في لفافة جديدة وهو يمد أذنيه يلتقط ما حوله من حوار.

- كافر من يدين موته أو ليس في الموت حياة.

- مباركة عربته التي أكدت عروبة طينتها، وأكدت أيضًا أن الثورة ليست رغيف خبز إنما أيضًا حرية وكرامة.

- لقد أصدر بيانًا سياسيًا بجسده لاصلاح البوصلة، بهدف توجيهها إلى الطريق السليم، وإلغاء الانسداد العربي الذي أصبح عمره أكثر من قرن حيث السكوت والعطالة.

- إنها تسونامي عربي صارخ. جعلته ينقش اسمه في السماوات العلا.

.. ..

.. الشمس تشرق من جديد معيدة..

..للأرض أحلامها الطيبة..

نغادر "سيدي بو زيد" ونحن نشاهد أرضًا فيها بدأ ينهمر الصباح. تبتسم لوفاء إنسان بسيط لوطن بدأ يقف على قدميه يرفع جسده الملتهب على حروف خمسة، اختصرت تاريخه، وأضاءت بنورها كامل المنطقة "كرامة" التي بزغت في اليوم الأول من عام ضحكة الفجر، حتى اندلاع النجوم. في الرابع عشر من الكانون من ذلك العام العاشر، بعد الألفية الثانية، حفنة من الرماد الآدمي، تدفع عربة خضار صغيرة، تسقط الوثن. لتبدأ حالة جديدة في الخضراء "تونس" والتي أطلق عليها البعض "جمهورية البوعزيزي"!!

كلمات ومعانى

سيدي بو زيد: مسقط رأس الشهيد محمد البوعزيزي.
قرطاج: عاصمة قرطاجنة. وهي الآن أحدى ضواحي تونس العاصمة.
الملاسيه: أحد أحياء تونس الفقيرة وتسمى حي الملاسين .
الوناسيه: أحد أحياء تونس الفقيرة.
الجبل الأحمر: أحد الأحياء الفقيرة جدًا في مدينة تونس.
قرقنة: جزيرة تونسية في البحر المتوسط .
جربة: جزيرة تونسية في البحر المتوسط.
وادي الجريد: منطقة سكانها من الفقراء في جمهورية تونس.
الدردنيل: هو المضيق الواصل بين البحر الأسود ، والمتوسط وجاء هنا كرمز للظرف المناسب الذي يجب استغلاله.
مجريط: الاسم العربي الأندلسي لمدينة مدريد الحالية.
عوليسه: الأميرة التي أقامت مدينة قرطاج. على جلد ثور.
تومية: اسم تونسي شائع وجاء هنا كمحبوبة مفترضة للشهيد. وهو هنا رمز للأرض.
الهلاليات: يقصد به التونسيات. وهنا إشارة إلى الهجرة الهلالية إلى شمال أفريقيا وبالذات تونس.
راسبوتين: راهب روسي عاش في أواخر عهد أسرة آل روما نوف في روسيا القيصرية وكان له نفوذه الكبير على القيصرة.
لمبادوزا: أقرب جزيرة إيطالية لسواحل تونس وهي أول محطة يصلها المهاجرون الأفارقة إلى إيطاليا ثم إلى أوروبا.
الفزاعة: الشارة (عروس الحقل)، التي يضعها الفلاحون لحماية مزروعاتهم من الطيور.
البساطير: الأحذية الثقيلة.
الدغباجي: أحد قادة ثورة التحرر ضد الاستعمار الفرنسي في تونس.

الأعوان: رجال الشرطة.

حنابعل: هو هانيبال القائد القرطاجي الذي حاصر روما.

نيرون: امبراطور روماني أحرق روما ثم جلس يتمتع بمنظرها.

يوبايا: زوجة نيرون.

دراكولا: أمير الظلام في حكايات القرون الوسطى الأوروبية.

مقهى الزفزاف: مقهى على شاطئ بحر تونس العاصمة.

المربوعة: المضافة غرفة الاستقبال في اللهجة التونسية.

البوسعيد: ضاحية من ضواحي تونس العاصمة.

الحوض المنجمي: منطقة الفوسفات في تونس. أهلها من أكثر الناس فقرًا في البلاد.

أسد بن الفرات: القائد الذي فتح صقلية وجنوب إيطاليا في أوائل عهد الدولة الأغلبية.

الأغالبة: دولة قامت في تونس بقيادة زيارة الله بن الأغلب.

يولويس قيصر: امبراطور روماني شهير.

جامعة الزيتونة: أول جامعة عربية إسلامية في الوطن العربي.

البايات: لقب حكام تونس قبل العهد البورقيبي.

obeikandi.com

الكاتب

خليل إبراهيم حسونة

صدر له

- الشعر والنص
  - الجرح تسافر فيه السكين
  - السماء تمطر بغزارة
  - عين واحدة.. عيون كثيرة
  - الخروج من حلم البنفسج
  - قلب بحجم الوطن (نصوص)
  - للقدس تجلياتها.. وللهوى أيضًا
  - انفجار البحر الميت
  - فاتحة التكوين
  - إيبويا
  - المنفى وحالات الحجر
- قصص قصيرة:
  - الطوق
  - النفير
  - قدم وساق
  - الحطاب والشجرة (قصة مصورة للأطفال)
  - أبعاد
  - ثرثرة المكان
  - لا رائحة للبحر
- رواية:
  - الأسوار
  - الدوائر
  - أنياب الصل
  - الأشياء
  - سيرة الزنزلخت
  - مرايا لا تتسع لخدوشها
- مسرح:
  - ما يحرث الأرض إلا عجولها
  - سحتوت عليان
  - زي ما رحتي.. زي ما جيتي (مسرحية)
- النقد:
  - الحجر الفلسطيني: الفعل والإيداع
  - سؤال القصيدة
  - جمرة الإبداع في النص الحداثي

obeikandl.com

- الوعي السلبي للثقافة المغايرة
- ضفاف الأنثى.. سطوة اللحظة.. وطقوس النص

• تراث شعبى (فولكلور):

- المثل الشعبي العربي الفلسطيني
- المثل الشعبي في ليبيا وفلسطين
- حمامة عسقلان
- الفولكلور الفلسطيني: دلالات وملامح
- التراث الشعبي الفلسطيني: ملامح وأبعاد
- الحزازير والألعاب الشعبية الفلسطينية
- الأغنية والأغنية السياسية في فلسطين

• الفكر والسياسة:

- العنصرية الصهيونية وكيفية مواجهتها
- الانتفاضة (بالاشتراك)
- الماسونية قديمًا وحديثًا
- لكي لا ننسى فلسطين
- حول الحركات الهدامة
- الحرب والثقافة
- الثورة الشعبية الفلسطينية (ثورة ١٩٣٦م-نموذجًا)
- الواقع العربي بين الثابت والمتغير (جزاءن)
- الإرهاب الأمريكي
- الحرب النفسية الحديثة

• تحت الطبع:

- رقم (رواية)
- زمن العواء (رواية)
- ناسوت (شعر)
- طينتي وجعك (شعر)
- طقوس الرجم (نصوص)
- التوق والبوح الأزرق (نصوص)
- مشاهدات المواطن حمد الله إبراهيم (قصص قصيرة)
- صهيل النص الشعري (نقد)
- شيء لا يشبه نفسه (نقد)

obeikandi.com